3 me Année, No. 111.

Lundi-19-8-1935

بدل الاشتراك عن سنة

مـ

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع المبدولى رقم ٣٢

عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١١١ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٠ جمادى الأولى سنة ١٣٥٤ — ١٩ أغسطس سنة ١٩٣٥ » السـنة الثالثة

فهرس العـــدد

ســـعد باشا زغلول

بمناسبة ذكراه الثامنة



كان رحمه الله كالبحر! لا تطالعه من أى جهاته إلا غمر نفسك بجلال العظيم، وشغل رأسك بخيال الشاعر، وأخذ حسك بروعة المجهول! لم يكن إنساناً كسائر الناس عظمته موضع الشذوذ فى بشريته، وعبقريته بعض الكمال فى نقصه، وقوته عَرَض متنقل فى ضعفه؛ إنما كانت العظمة أصلا فى طبعه، والعبقرية فطرة فى خَلْقِه، والقوة جوهراً فى إرادته. وإذا كان النبوغ قوة فى

مَلَكة على حساب مَلَكات ، وارتفاعا فى جهة بانخفاض جهات ، فان نبوغ سعد باشا كان نظاماً عَدْلا فى نوعه : ظهر فى كل موهبة من مواهبه بمقدار واحد ، وبهر فى كل أثر من آثاره بشعاع ممتاز . فهو فى صرامة المنطق مثله فى لطافة الشعر ، وفى جرأة القلب مثله فى رقة الشعور ، وفى بلاغة اللسان مثله فى براعة الذهن ، وفى كيد الخصومة نفسه فى شرف الرجولة ، وفى قيادة الجمعية التشريعية عينه فى قيادة الأمة المصرية !

سعد زغلول ومحمد عبده هما الآية الشاهدة على سمو الجنسية المصرية الخالصة ، والحجة القاطعة على فضل الثقافة العربية الصحيحة . نشأ كلاهما قرويين لم يَشُبْ دماءها عنصر دخيل ، أزهريين لم يشلّ تفكيرهما تقليد عاجز ؛ ثم مضيا على إلهام الجنس ، ورسم التاريخ ، وهدى العقيدة ، يدعو أحدهما إلى اصلاح الدين ، ويدعو الآخر إلى صلاح الدنيا ، برجولة الخلق ، وفحولة التفكير ، وبطولة التضحية ؛ حتى كان من أثر جهادهما المباشر ما نحن والشرق فيه من انتباه العقل وانتعاش الوجدان وثورة الحمية .

كانت معجزة الرجلين فى رسالتهما الإنسانية ، من نوع معجزة الرسول فى رسالته الإلهية : رجولة قاهرة وفصاحة ساحرة وخلق عظيم . وتلك هى عناصر الشخصية الجبارة التى تأمرك وكأنها تستشيرك ، وتقودك وكأنها تتابعك ، وتتطامن إليك وأنت منها كما تكون من البحر أو الجبل أو العاصفة ! !

* * *

إذا شئت أن تختصر رسالة سعد فى كلمة فهى (الدفاع عن الحق) ؛ تطاوع له منذ شب بدافع من غريزته الحاكمة وطبيعته الناقدة ؛ فكان فى كل مرحلة من مراحل حياته يذود عنه طغيان القوة ، وسلطان الهوى ، وعدوان الرذيلة . عُيِّن بعد خروجه من الأزهر محرراً فى الوقائع المصرية مع أستاذه الامام ، فكان يكتب فى الاستبداد والشورى والأخلاق ، وينتقد الأحكام التى كانت تصدرها يومئذ (المجالس الملغاة) ؛ ثم عين ناظراً لقلم قضايا الجيزة ، وكان حكمه حكم القاضى الجزئى ، فنزل الحق من عدله وعقله فى حمى أمين ؛ ثم أصغى لصرخة الحق فى الغضبة العرابية ففصل من وظيفته ، فزاول المحاماة ، وهى يومئذ حيلة الباطل وخصيمة العدل وآفة الخلق ؛ فأنقذها من هذه المراغة ، وطهرها من ذلك الرجس ، وردّها إلى طبيعتها مجلوة الصدر عفيفة الأديم ، تساعد القانون وتؤيد الحق

وكان سعد أفندى زغلول أول محام أقرته المحاكم الأهلية فى مصر ، فجعل دستور هذه الحرفة النبيلة هذا الجواب الجامع الذى أجاب به ممتحنه وقد سأله عن واجبات المحامى فقال :

« درس القضية ، والدفاع عن الحق ، واحترام القضاء »

ثم اختير نائب قاض فى محكمة الاستئناف ، ويومئذ درس الفرنسية ونال إجازة الحقوق ، فبرع القضاة الأوربيين بالذهن الغواص ، والدرس المحيط ، والتوجيه النزيه ، والاستدلال الصحيح ، والاستنباط الدقيق ، والحكم الموفق . ثم انتقل من القضاء إلى وزارة المعارف ، وكان لدنلوب فيها استبداد الطاغية ، وفساد المستعمر ، وعناد القدَر ؛ وكان لهذا الفاجر صرعى كثيرون أولهم اللغة العربية والكرامة المصرية ؛ فطاطأ سعد بسطوة الحق علو المستشار ، وأعز جانب العربية فى وطنها فجعلها لغة الثقافة ، ووضع الأقدار فى مواضعها فرفع بذلك من قدر الكفاية

ثم انتخبته الأمة نائباً عنها فى « الجمعية التشريعية » ، فكان بشخصيته الغلابة ولهجته الخلابة وحججه المُلزمة وأجوبته المفحمة رهبة الوزراء ، ودهشة النواب ، ومُتجه الأفئدة ؛ وكان منهاجه فيها قوله المأثور :

« الحق فوق القوة ، والأمة فوق الحكومة »

ثم أعلنت الهدنة ووضعت الحرب العامة قضية العالم كله على مكاتب الغالبين فى (فرساى) ، فدوى فى سمعه صوت الحق الصريع ، وعصفت فى رأسه نخوة الشعب المستذل ، فنهض النهضة المزهوّ نهضته المعروفة ، فخيّس بها أنف الجبار العنيد ، وفتح بفصلها الدامى تاريخ مصر الجديد

* * *

وهكذا اصطفى الله سعداً لرسالة الحق ، فى أمة سفهته فى نفسها فلا تأخذه ولا تعطيه ، ثم ركّبه على الصورة التى أرادها لتبليغ هذه الرسالة ، ثم هدى به قافلة قومه إلى طريق السلامة ، وجعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة !

(للكلام بقية) احمد حسن الزيات

أيها البـــــحر!

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

إذا احتدم الصيفُ، جعلتَ أنت أيها البحرُ للزمن فصلاً جديداً يسمى « الربيعَ المائي »

وتنتقلُ إلى أيامِك أرواحُ الحدائق، فتنبتُ في الزمن بعضُ الساعاتِ الشهيةِ، كأنها الثمرُ الحلوُ الناضجُ على شجره

ويُوحي لونُكَ الأزرقُ إلى النفوس ما كان يوحيه لونُ الربيع الأخضر، إلا أنه أرقُّ وألطف

ويرى الشعراءُ في ساحلك مثلما يرون في أرض الربيع، ألوانه ظاهرة، غير أنها تلدُ المعانيَ لا النبات

ويُحِسُّ العشاقُ عندك ما يحسّونه في الربيع: أن الهواءَ يتأوّه....

* * *

في الربيع، يتحرك في الدم البشريِّ سرُّ هذه الأرض؛ وعند « الربيع المائي » يتحرك في الدم سرُّ هذه السُّحُب

نوعان من الخمر في هواء الربيع وهواء البحر، يكون منهما سكرٌ واحدٌ من الطرَب

وبالربيعَيْن الأخضر والأزرق ينفتح بابان لعالم السحريِّ العجيب: عالَمِ الجمالِ الأرضيِّ الذي تدخله الروحُ الانسانية كما يدخلُ القلبُ المحبُّ في شعاع ابتسامةٍ ومعناها

* * *

في « الربيع المائي »، يجلسُ المرءُ وكأنه جالسٌ في سحابةٍ لا في الأرض

ويشعرُ كأنه لابسٌ ثياباً من الظلّ لا من القماش؛ ويجدُ الهواءَ قد تنزَّه عن أن يكون هواءَ التراب

ويخِفُّ على نفسه الأشياءُ، كأنَّ بعضَ المعاني الأرضية انتزعتْ من المادة. وهنا يدركُ الحقيقة؛ أن السرور إن هو إلا تنبُّهُ معاني الطبيعة في القلب

* * *

وللشمس هنا معنى جديدٌ ليس لها هنالك في « دنيا الرزق »

تُشرقُ الشمسُ هنا على الجسم؛ أما هناك فكأنما تطلُعُ وتغرُب على الأعمال التي يعملُ الجسمُ فيها

تطلعُ هنالك على ديوان الموظف لا الموظف، وعلى حانوت التاجر لا التاجر، وعلى مصنع العامل، ومدرسة التلميذ، ودار المرأة

تطلع الشمسُ هنالك بالنور، ولكنَّ الناسَ — وا أسفاه — يكونون في ساعاتهم المظلمة...

الشمسُ هنا جديدة، تُثبتُ أن الجديدَ في الطبيعة هو الجديدُ في كيفية شعور النفس به

* * *

والقمرُ زاهٍ رقّافٌ من الحُسْن؛ كأنه اغتسل وخرج من البحر

أو كأنه ليس قمراً، بل هو فجرٌ طلع في أوائل الليل؛ فقصرَّته السماءُ في مكانه ليستمرَّ الليل

فجرٌ لا يوقظ العيونَ من أحلامها، ولكنه يوقظُ الأرواح لأحلامها

ويُلقي من سحره على النجوم فلا تظهر حوله إلا مُشتبِهة كأنها أحلامٌ معلَّقة

للقمر هنا طريقةٌ في إبهاج النفس الشاعرة، كطريقة الوجه المعشوق حين تقبِّله أولَ مرة

* * *

و « الربيع المائي » طيورُه المغرِّدة وفَراشُه المتنقِّل

أما الطيور فنساءٌ يتضاحَكْنَ، وأما الفراشُ فأطفالٌ يتواثبون

نساءٌ إذا انغمسْنَ في البحر، خيِّلَ إليَّ أن الأمواج تتشاحنُ وتتخاصمُ على بعضهن....

رأيتُ منهن زهراءَ فاتنةً قد جلست على الرمل جِلْسةَ حوَّاءَ قبل اختراع الثياب، فقال البحر: يا إلـهي. قد انتقل

---

* كتبنا في (أوراق الورد) رسالة عن البحر والحب فيها أوصاف كثيرة للبحر

معنى الغرق الى الشاطئ . . . إن الغريق من غرق فى موجة الرمل هذه . . . .

* * *

والأطفالُ يلعبون ويصرخون ويضجُّون كأنما اتسعت لهم الحياةُ والدنيا

وخيِّل اليّ أنهم أقلقوا البحر كما يُقلقون الدار ، فصاح بهم : ويحكم يا أسماكَ التراب . . . ! ورأيتُ طفلاً منهم قد جاء فَوَكَزَ البحرَ بِرِجْله ! فضحك البحر وقال : انظروا يا بنى آدم ! !

أعَلى الله أن يَعْبَأ بالمغرور منكم إذا كَفرَ به ؟ أعليّ أن أعبأ بهذا الطفل كيلا يقول إنه ركَلَنى برجله . . . ؟

* * *

أيها البحر . قد ملأتك قوة الله لتُثبت فراغ الأرض لأهل الأرض

ليس فيك ممالك ولا حدود ، وليس عليك سلطانٌ لهذا الانسانِ المغرور

وتجيش بالناس وبالسفُن العظيمة ، كأنك تحمل من هؤلاء وهؤلاء قشاً تَرمى به

والاختراعُ الانسانىُّ مهما عَظُم لا يُغْنى الانسانَ فيك عن إيمانه

وأنت تملأ ثلاثة أرباع الأرض بالعظَمَة والهوْل ، رداً على عَظمة الانسان وهوله فى الربع الباقى ؛ ما أعظمَ الانسانَ وأصغره !

* * *

يَنزلُ الناسُ فى مائك فيتساوَوْن حتى لا يختلف ظاهرٌ عن ظاهر

ويركبون ظهرَكَ فى السفُن فيحنُّ بعضهم إلى بعض حتى لا يختلف باطنٌ عن باطن

تُشعرهم جميعاً أنهم خرجوا من الكرة الأرضيـة ومن أحكامها الباطلة

وتُفقرهم إلى الحب والصداقة فقراً يُريهم النجوم نفسها كأنها أصدقاء ، إذ عرفوها فى الأرض

يا سحر الخوف . أنت أنت فى البحر كما أنت أنت فى جهنم

* * *

وإذا ركبك المُلحِدُ أيها البحر ، فرجفت من تحته ، وَهدَرْتَ عليه وثُرت به ، وأريتَهُ رأيَ العين كأنه بين سماءين ستنطبقُ إحداها على الأخرى فتُقَلقلان عليه ، تركتَه يتطاطأ ويتواضع ، كأنك تهزُّه وتهزُّ أفكاره معاً وتُدَحْرِجَهُ وتدحرجُها

وأطَرْتَ كل ما فى عقله فيلجأ إلى الله بعقل طفل

وكشفتَ له عن الحقيقة أن نسيان الله ليس عمَل العقل ، ولكنه عملُ الغَفلة والأمن وطولِ السلامة

* * *

ألا ما أشبَه الانسانَ فى الحياة بالسفينة فى أمواج هذا البحر !

إن ارتفعت السفينةُ ، أو انخفضت ، أو مادت ، فليس ذلك منها وحدها ، بل مما حولها

ولن تستطيع هذه السفينةُ أن تملك من قانون ما حولها شيئاً ، ولكن قانونها هى الثبات ، والتوازن ، والاهتداء إلى قصدها . ونجاتُها فى قانونها

فلا يعتبنّ الانسانُ على الدنيا وأحكامها ، ولكن فليجتهد أن يحكم نفسه

كتبت فى شاطئ سيدى بشر
(اسكندرية)

مصطفى صادق الرافعى

مصر وقت الفتح الفاطمى

والعوامل التى مهدت لهذا الفتح

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كانت مصر وقت الفتح الفاطمى ، فريسة هينة للفاتح ؛ بيد أنها لم تكن كذلك قبل الفتح الفاطمى بنصف قرن فقط . وقد ثابت للفاطميين منذ شادوا ملكهم فى إفريقية ، نية فى غزوها وامتلاكها ، فغزوها أكثر من مرة ، واستولوا على بعض نواحيها ، ولكنهم ارتدوا عندئذ أمام جند الخلافة وجند مصر ؛ ذلك أن مصر لم تكن يومئذ فريسة هينة ، وكان يشرف على مصايرها باسم الخلافة جماعة من الجند والزعماء الأقوياء ينظمون مواردها وقواها الدفاعية حين الخطر الداهم ؛ وكان الفاطميون من جهة أخرى يغالبون فى المغرب خطر الانتقاض المستمر ، ويقوم ملكهم الفتى على بركان يضطرم بعناصر الخروج والثورة ، حتى لقد كادت دولتهم الناشئة تنهار فى المهد تحت ضربات القبائل البربرية الخصيمة وذلك فى عهد ثانى خلفائهم القائم بأمر الله [1] . على أن الخلافة العباسية التى استطاعت فى فورة من القوة فى عهد المكتفى بالله أن تسحق الدولة الطولونية وأن تسترد مصر منها ، لم تستطع أن توطد سلطانها الفعلى فى مصر ، وإن كانت قد استعادت سلطانها السياسى والدينى فيها ، وكان الزعماء الأقوياء الذين يحكمونها باسم الخلافة مثل تكين الخزرى ، وذكا الرومى ، وابن كيغلغ ، وابن طغج ، يتمتعون بكثير من الاستقلال ، وربما نزع بعضهم إلى انتزاعها من يد الخلافة كما فعل أحمد بن طولون من قبل ، وكما فعل محمد بن طغج (الأخشيد) فيما بعد ، وكانت هذه النزعة الاستقلالية ، ذاتها عاملا فى ضعف سلطان الخلافة فى مصر ، وفى المباعدة بينها وبين مصر ، وقلة اهتمامها بشؤون هذا القطر النائى ومصايره ؛ ولكنها كانت من جهة أخرى عاملاً فى حرص أولئك الحكام والزعماء الطامحين على الدفاع عن مصر وحمايتها من غارات المعتدين عليها والتطلعين إلى امتلاكها . وكان جل اعتمادهم فى ذلك على جند مصر ذاته ، ولكن الشعب المصرى لم يكن يعطف دائماً على أولئك الحكام الأجانب خصوصاً ومعظمهم من الفرس أو الترك المستعربين ؛ فكان الزعماء المحليون ينزعون دائماً إلى منافستهم ومناوأتهم ، وكان الجند كثير التمرد والثورة ، يتبرم بأطماع أولئك الزعماء وجشعهم فى استخلاص أرزاقه [1] ؛ فكان تعاقب الولاة ومنافساتهم فى تلك الفترة ، وثورات الجند المتكررة ، واضطراب الشؤون العامة ، وفقدان الأمن ، وغلبة الفوضى ؛ هذه كلها تزيد مصر ضعفاً على ضعفها ، وتدفعها إلى التطلع إلى مصير أفضل من هذا المصير

وبينما كانت الدولة العباسية تجوز مرحلة اضطراب وضعف ، كانت دولة خصيمة فتية هى الدولة الفاطمية تسير مسرعة إلى النماء والتوطد ؛ وكانت القبائل البربرية التى شدت أزر الفاطميين ، وأقامت ملكهم فوق ملك الأغالبة ، تحتفظ فى هذا القفر بخشونتها وبأسها بعيدة عن تلك العوامل الرخوة التى تحمل عناصر الهرم والفناء إلى دول ومجتمعات يغمرها تيار الحضر والنماء والترف ؛ ولم تكن المعركة الهائلة التى اضطرمت مدى حين بين الدولة الفتية وبين القبائل الخصيمة ، وكادت تسحقها فى المهد ، إلا لتذكى فيها رغبة الحياة وعزم النضال ؛ وقد خرجت من المعركة ظافرة قوية ، ولكنها أدركت فى نفس الوقت فداحة الخطر الذى يهددها من تمرد أولئك الخوارج الأشداء ؛ ومع أن الفاطميين استطاعوا فيما بعد أن يدوخوا قبائل المغرب كله وأن ينفذوا بفتوحاتهم فى المغرب الأقصى حتى المحيط ، فانهم لم يطمئنوا إلى البقاء فى تلك الوهاد الوعرة ، ولم يعتبروا أنهم وصلوا باقامة ملكهم فى افريقية إلى ذروة الأمانى والغايات

كانت مصر تلوح لهم خلال هذا القفر النائى درة خضراء ؛ وكانت مصر فى نظرهم هى ميدان المعركة الحاسمة التى يضطرمون لخوضها مع الدولة العباسية — خصيمتهم السياسية والمذهبية — وقد حاولوا خوضها منذ الساعة الأولى ، فزحفوا على مصر أكثر من مرة كما قدمنا ، وكما سنفصل بعد ؛ ولكن فرصة الظفر لم تكن قد سنحت بعد ، واستطاعت مصر بجندها وجند الخلافة أن ترد الغزاة ، وشغل الغزاة مدى حين بما يهددهم فى

(١) راجع المقريزى — اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الخلفاء ص ٤٧ — ٤٩ — والخطط (الطبعة الأهلية) ج ٢ ص ١٦٣

(١) راجع الخطط — ج ٢ ص١٢٦ و ١٢٧

افريقية ذاتها من خطر الانتقاض والفناء . وفى تلك الفترة تطورت الحوادث فى مصر وسارت الى مرحلة جديدة من الاستقرار فى ظل الخلافة أيضاً ؛ وانتهت المنافسات والثورات العسكرية المتكررة بفوز محمد بن طغج الأخشيد بولاية مصر للمرة الثانية فى سنة ٣٢٣ هـ (٩٣٥ م) من قبل الخليفة القاهر ؛ وكان قد وليها لأول مرة قبل ذلك بعامين ولكنه لم يدخلها ولم تطل ولايته أكثر من شهر ؛ فلما وليها من قبل القاهر سار اليها من دمشق فى قواته ، فتعرض له أحمد بن كيغلغ حاكم مصر وقتئذ وحاول رده عن ولايتها بقوة السيف ؛ ذلك لأن ابن كيغلغ كان من أولئك الزعماء الأقوياء الذين يطمحون الى الاستقلال بمصر ؛ ولكن ابن طغج هزمه ودخل مصر ظافراً وتقلد ولايتها ، وأنعم عليه الخليفة بلقب الأخشيد أو (ملك الملوك)

وكان الاخشيد أميراً طموحاً ، وافر الذكاء والشجاعة والعزم ، فلم تقف همته عند استخلاص الولاية لنفسه على الشام ومصر ؛ ولكنه رأى أن ينشئ فيهما لنفسه دولة مستقلة فى ظل الخلافة ، وأسرة ملوكية تتوارث السلطان من بعده ، على مثل ما انتهى إليه ابن طولون بانشاء الدولة الطولونية . وهكذا قامت بمصر دولة جديدة هى الدولة الأخشيدية ؛ واستقرت الأحوال بمصر فى ظل الدولة الجديدة ، وانتظمت قواتها الدفاعية ، واستطاعت أن ترد الغزاة الفاطميين كرة أخرى (سنة ٣٣٢ هـ) وسطعت الدولة الأخشيدية بمصر مدى حين ، وكادت تنافس فى القوة والبهاء دولة بنى العباس ذاتها ، ولاح مدى حين أن أمل الفاطميين فى فتح مصر قد خبا . ولكن قوة الدولة الجديدة كانت ترجع بالأخص إلى همة منشئها الأخشيد وإلى قوة خلاله ؛ فلما توفى الأخشيد (سنة ٣٣٤) ، وخلفه ولده انوجور على مصر والشام ثم أخوه على بن الاخشيد (سنة ٣٤٩) ، وآل تدبير الامور فى عهدهما إلى كافور الأخشيدى خادم أبيهما ؛ أخذ صرح الدولة الجديدة فى التصدع ؛ ولما توفى على بن الاخشيد ، انتزع كافور الامارة لنفسه (سنة ٣٥٥) ؛ وقبض هذا الأسود الخصى مدى حين على مصاير مصر والشام ؛ ومع أنه كان كثير الدهاء والعزم ، فانه لم يستطع أن يحول دون تسرب العوامل المنوية والاجتماعية الهدامة التى كانت تقضم أسس الدولة الأخشيدية ، ولم تطل ولايته مع ذلك أكثر من عامين ؛ وخلفه فى الامارة صبى حفيد للأخشيد هو احمد بن على بن الأخشيد ، وتولى تدبير الأمور وزير مصر القوى جعفر بن الفرات ؛ ولكن الامور كانت قد ساءت يومئذ ، فكثرت الأزمات واضطربت أحوال الجند والشعب ، وظهرت امارات الذبول والهرم على الدولة الأخشيدية ولاح لها شبح الفناء جاثماً فى الأفق

— ٢ —

وشغلت الدولة الفاطمية فى تلك الفترة بشؤونها الخاصة ، فلم تعاود كرة الهجوم على مصر منذ سنة ٣٣٢ هـ ؛ ومع ذلك فقد لبثت ترقب سير الحوادث فى مصر بمنتهى العناية ؛ وكانت تعتمد فى تنفيذ مشروعها على الشعب المصرى ذاته وعلى زعمائه الناقمين على بنى الأخشيد ، وعلى تمرد الجند الساخط لانتقاص أعطيته ؛ وقد كان فريق من أولئك الجند هم الذين دعوا الفاطميين الى غزو مصر وقت أن غادرها ابن كيغلغ منهزماً أمام الاخشيد لسحق الدولة الأخشيدية[1] . ولما توفى كافور ، واضطربت أحوال الدولة ، وتعارضت الآراء فى مسألة الولاية والحكم ، وكثر التنافس على السلطة ، وقلت اعطية الجند ، كتب بعض زعمائه إلى الخليفة الفاطمى المعز لدين الله يدعوه إلى فتح مصر[2] ؛ واشترك فى هذه الدعوة رجل من أكابر رجال الدولة فى عهد كافور ، هو يعقوب بن كلس ؛ وكان الوزير جعفر بن الفرات قد قبض عليه عقب وفاة كافور وزجه إلى السجن وصادر أمواله فما زال يسعى حتى أفرج عنه ؛ وفر من مصر إلى المغرب ودعا المعز إلى فتح مصر ، ووصف له خصبها وغناها ، وضعفها واضطراب أحوالها[3] ؛ وقد كان لابن كلس هذا فيما بعد أعظم شأن فى الدولة الفاطمية بمصر فى عهد المعز وولده العزيز

وقد رأى الفاطميون فى موت كافور خاتمة لذلك الاستقرار الذى تمتعت به مصر فى عهد بنى الأخشيد ، ولم يفتهم أن يلاحظوا عوامل الانحلال والوهن التى سرت سراعاً إلى قوى مصر المادية والمنوية . والواقع أن مصر كانت تعانى من تقلب الزعماء والدول أسوأ الآثار فى مواردها وفى نظمها الاجتماعية وأحوالها المنوية ، وكانت تلك القوة التى تسبغها الزعامة المؤقتة على مركزها خابأً ، وكان الشعب مطية المتغلب يسوقه إلى الحرب والسلام طبق

(١) الخطط — ج ٢ ص ١٢٧
(٢) ابن خلكان فى ترجمة القائد جوهر — ج ١ ص ١٤٨
(٣) ابن خلكان — ج ٢ ص ٤٤٠

أهوائه ، ويستنفد موارده وأرزاقه فى بذخه ومشاريعه ، وكانت العاطفة القومية تتبرم بهـذه السيادة الأجنبية التى تمثلها قصور لا تصطبغ بصبغة قوية من العروبة أو الزعامة الدينية ، كذلك كانت الأزمات الاقتصادية الخطيرة التى تنتهى غالباً بالغلاء والوباء تفعل فعلها فى إذكاء عواطف السخط والاستكانة واليأس ؛ وقد كانت مصر وقت الفتح الفاطمى (سنة ٣٥٨ هـ) تعانى مصائب الغلاء والوباء ، ويقال إنها فقدت من أبنائها فى تلك المحنة زهاء ستمائة ألف [1] وكان ذلك بلاريب عاملاً فى إضعاف قواها الدفاعية وفى زهدها فى النضال والمقاومة . أضف الى ذلك كله ما كانت تعانيه مصر يومئـذ من ضروب الانحلال والفساد الاجتماعى الشامل ؛ وقد انتهت الينا فى ذلك رواية إذا صحت فانها تمثل ما كان لتلك الظاهرة يومئذ من أهمية فى إذكاء همة الفاطميين لفتح مصر ؛ وخلاصة هذه الرواية أن أم الأمراء (زوجة الخليفة المعز) أرسلت إلى مصر صبية لتبيع فرضها وكيلها فى السوق وطلب فيها ألف دينار ، فأقبلت إليه امرأة أنيقة فتية على حمار وساومته فى ثمنها واشترتها منه بستمائة دينار ، وعلم الوكيل أن هذه السيدة الأنيقة هى ابنة الأخشيد محمد بن طغج وأنها اشترت الصبية لتستمتع بهـا لأنها تهوى الصبايا الحسان ، فلما عاد إلى المغرب حدث المعز لدين الله بأمرها ، فدعا المعز شيوخ القبائل ، وروى الوكيل لهم حادث الصبية ، وعندئذ قال المعز : يا إخواننا انهضوا إلى مصر فلن يحول بينكم وبينها شىء ، فان القوم قد بلغ بهم الترف إلى أن صارت امرأة من بنات الملوك فيهم تخرج بنفسها وتشترى جارية لتتمتع بها ، فقد ضعفت نفوس رجالهم وذهبت الغيرة منهم ، فانهضوا بنا اليهم [2]

وفى هذه الأقوال التى ينسب قولها عن مصر للمعز لدين الله صورة بارزة لما يسود المجتمع المترف الرخو من عناصر الهدم . وقد كان هذا شأن المجتمع المصرى فى خاتمة كل فترة من النهوض والقوة : ففى نهاية الدولة الطولونية انتهى المجتمع المصرى ، بعد فترة قصيرة من الفتوة والبهاء والقوة ، إلى نوع من الانحلال والتفكك مهد لسقوط الدولة الطولونية وعود السيادة العباسـية ؛ وقد كان هذا شأنه فى خاتمة الدولة الأخشيدية التى سطعت فى عهد مؤسسها

(١) ابن خلكان — ج ٢ ص ١٣٤

(٢) المقريزى — الخطط ج ٢ ص ١٦٦ — واتعاظ الحنفاء ص ٦٤

لمدى قصير فقط . وقد نشأت الدولة الفاطمية وترعرعت فى قفار المغرب ، فى مهاد البساطة والخشونة والفتوة ؛ وانتهت فى هذا الوقت الذى أزمع الخليفة الفاطمى فيه فتح مصر ، إلى ذروة القوة والفتوة والرجولة إذا صح التعبير . واليك رواية عن المعز تقدم إلينا صورة قوية مؤثرة عن تلك الروح الخشنة الوثابة التى امتازت بها الدولة الفاطمية فى تلك الفترة من حياتها : استدعى المعز فى يوم بارد إلى قصره بالمنصورية عدة من شيوخ كتامة ، وأمر بادخالهم إليه من باب خاص ، فاذا هو فى مجلس مربع كبير مفروش باللبود وحوله كساء وعليه جبة وحوله أبواب مفتحة تفضى إلى خزائن كتب وبين يديه دواة وكتب ؛ فقال يا إخواننا أصبحت اليوم فى مثل هذا الشتاء والبرد ، فقلت لأم الأمراء ، وانها الآن بحيث تسمع كلامى : أترى اخواننا يظنون انا فى مثل هذا اليوم نأكل ونشرب ونتقلب فى المثقل والديباج والحرير والفنك والسمور والمسك والخمر والقباء ، كما يفعل ، أرباب الدنيا ، ثم رأيت أن أنفذ إليكم فأحضركم لتشاهدوا حالى إذا خلوت دونكم ، واحتجبت عنكم ؛ وإنى لا أفضلكم فى أحوالكم إلا بما لا بد لى منه من دنياكم وبما خصنى الله به من إمامتكم ؛ وإنى مشغول بكتب ترد على من المشرق والمغرب أجيب عنها بخطى ؛ وإنى لا أشتغل بشىء من ملاذ الدنيا الا بما يصون أرواحكم ويعمر بلادكم ويذل أعداءكم ويقمع أضدادكم ، فافعلوا ياشيوخ فى خلواتكم مثلما أفعله ، ولا تظهروا التكبر فينزع الله النعمة عنكم وينقلها إلى غيركم ، وتحننوا على من وراءكم ممن لا يصل الى كتحننى عليكم ليتصل فى الناس الجميل ، ويكثر الخير ، وينتشر العدل وأقبلوا بعدها على نسائكم ، والزموا الواحدة التى تكون لكم ، ولا تشرهوا إلى التكثر منهن ، والرغبة فيهن ، فيتنغص عيشكم ، وتعود المضرة عليكم ، وتنهكوا أبدانكم ، وتذهب قوتكم ، وتضعف نحائزكم ، فحسب الرجل الواحد الواحدة ؛ ونحن محتاجون إلى نصرتكم بأبدانكم وعقولكم . واعلموا أنكم إذا لزمتم ما آمركم به ، رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب بكم ؛ انهضوا رحمكم الله ونصركم [1]

(البحث بقية) محمد عبد الله عنان

(النقل ممنوع)

(١) المقريزى الخطط . ج ٢ ص ١٦٤ واتعاظ الحنفاء ص ٦٠ و ٦١

حول الأوزاعى «ثالثا»

للأستاذ أمين الخولى

... ولا مفر لى من أن أعد قراء الرسالة ألا أعود إلى هذا الموضوع بعدها ؛ ثم سلام على الأخ السيد السنتافورى ، وانتصاحٌ خير انتصاح بنصيحته فى أن أعدل منطق ؛ وجزاه الله عن هذه النصيحة خير الجزاء ؛ ولعله يعمل معى على هذا الاصلاح الرشيد الذى أبادر بشكره عليه ، فيدعنى أضع بين يديه هذه النقط ليصلحها كما يشاء ، وله أن يبعث إلى هذا الاصلاح بأى طريق يؤثره . وربما لا يكون لقراء الرسالة بهذا الاصلاح اهتمام فليجعله — إن كان ذلك — بيننا خاصاً

ياسيدى ؛ نصرت فى حديث عن الأوزاعى التأثر الرومانى ، بالتأثر بالثقافة والبيئة التى لا بد من تقديره ؛ فكتبت تقول لى إن القانون الرومانى الحديث مأخوذ من الفقه الاسلامى ؛ وإذ ذاك قلت لك هذا رأى قديم نشر فى مصر ولا يؤثر فى قولى ؛ فقلت لى إنى أكتب ذلك للقراء ، لا لك وحدك . والذى نشر فى الكتب المطبوعة منذ ربع قرن ؟ أليس هو للقراء ؟ أم مهمة الرسالة أن تذيع ما فى الكتب ؟ أم أين منطق ... وأقول لك لا يؤثر على قولى ولا يتصل به من قرب ، فترى من اللازم أن أجيب عن كل ما كتبت أنت وأبسط للقراء رأيى مدعماً ببراهين لا تنقص — على الأقل — عن براهين مناظرى ؛ ولكن لم أكن مناظرك فى هذا ، ولا عرضت له ؛ وعنونت كلتى الثانية أيضاً كما عنونت هذه الثالثة ، حول الأوزاعى ؟ فلا أنا فتحت البحث ولا أنا أردت الخوض فيه ؛ وستعرف آخر الأمر لماذا فعلت ذلك ؛ فالآن أين منطق .. وأقول لك وقتى — وقتى أنا — وعملى وواجبى ومصالحى ، فتقول لى لماذا يضيق الوقت ذرعاً بالخوض فى هذا البحث وحده ، فبربك أين منطق ؟ ... وأقول لك حين تسوى بين الأخذ والتأثر أنهما متغايران والثانى منهما قد يكون حاداً قوياً ؛ وهو متاركة ومجانبة واحتياط من المخالطة ، فلا يعجبك ذلك . وتحدثنى عن سد الذرائع ، كأنك تريد أن أخوض معك مناظرة أصولية ، ولما نفرغ من المناظرة فى تاريخ القانون ، التى تجبرنى عليها ، حين تزعم أن أصل البحث الذى نحن فيه أنه وجد فى الفقه الرومانى تشابه مع الفقه الاسلامى فهم منه البعض وجود علاقة بين الفقهين ، وعلم الله أنى أرد العلاقة إلى أبسط من هذا التشابه وذاك الأخذ الذى تحب أن تتكلم فيه ، فتجبرنى على المناظرة فيما لا أرى القول فيه أو أكون هارباً منك ، فأين منطق ... ؟

وأقول لك إن قانون البيئة والثقافة ينطبق على الاسلام تمام الانطباق ، فتقول لى إنك تريد أنه خارق لا ناقض وتفرق لى بينهما ، وفى منطق — المريض — أن الناقض والخارق كلاهما مخالف وأنا أقول إنه موافق ، فما التفريق بين الناقض والخارق ؛ وأين منطق ...

وتقول إن الشريعة الاسلامية وجدت كاملة دفعة وفى زمن واحد . فأقول لك نمت وزادت وتغيرت بالزمان والمكان واختلف فيها اختلاف هائل ؛ فتقول لى إنما أريد الأصول والحدود والفرائض ؛ وهل وجود الأصول هو وجود فهم الأصول والاختلاف فيها ، والتطبيق عليها ؛ وأين منطق ...

وأقول لك إن بعد المرامى القرآنية سبب للاختلاف ، فتحتج فى الرد على هذا بأمر على لابن عباس أن يتوخى الجدال بالسنة حرصاً على ألا يخطئوا فى فهم القرآن وتأويله ، وهو عين ما أقوله من تسبيب الاختلاف ، فأين منطق ...

وأقول لك عدم صراحة النصوص من أسباب الاختلاف ، فتقول السبب الأكبر هو كذا ، وهذا عندى هو السبب الأكبر ، وهل وجود السبب الأكبر — عندك — ينفى السبب ، أو الأسباب الكبيرة ، والصغيرة و و .... ، وأين منطق

وأقول لك اختلف الأدباء فى فهم معنى الكذب فى القرآن واستعماله فيه ، فتقول لى فرق بين رسوم الألفاظ وحدودها المنطقية وبين صرائح مؤدياتها اللغوية ، وهل ليست مؤدياتها هذه هى معانيها وما يفهم منها ، وهل ليس هذا هو ما يحدد ويقدر حين يراد التفريق الدقيق والفهم المحلل والمحرم ؛ وإلا فما هذه الحدود المنطقية وما تلك المؤديات التى تختلف عند السيد ... وأين منطق ... ؟ إن منطق لم يفهم مطلقاً أن خطبة حجة الوداع يفهمها المسلم اليوم مثل ما فهمها المسلم سنة عشر من الهجرة

دون خلاف ، لأن الألفاظ يغيرها الاستعمال ، وتوسعها وتضيقها الظروف الحيوية والأدبية وغيرها ، وهذا ممنى قاله قدماء أدبائنا وقاله أصوليونا حين طلبوا فهم القرآن بمثل ما كانت تفهم العرب وقت نزوله ، لا بغير ذلك من المعانى ؛ ثم منطق هذا لم يفهم الكلام فى التفريق بين العربية وما تطور من اللغات حتى كاد ينقطع عن أصله الأول قبل مائتى سنة ، لأنا لم نكن بصدد دراسة مميزات العربية ، بل بصدد صراحة آيات الأحكام ووضوح مراميها أو وقوع المشترك فيها ، لا لبعد المرمى الدقيق الاعجاز فقط

وتقول إن أغلب النصوص الفقهية من السنة ، فلا أفهم ذلك ، فتحتج عليه بأن السنة مبينة للكتاب ، فهل البيان يثبت الأغلبية والأكثرية وهى أمر احصائى ؟ ثم كيف غلبت وهى تابعة لأصل هو الكتاب لا تجيء بما ليس فيه ، فكل ما فيها فيه ، فأين هذه الأغلبية ، وأين منطق . . . أصلح الله شأنى وأصلح شأنك إن قبلت منى هذه الدعوة فى غير غضب ، وإلا فدع نصيبك منها لى كله

وأقول لك تتأثر الأمم بميراث بعضها ؛ فتقول لى قد مضى على الرومان قرن وأكثر ، ولم يبق من ثقافتهم عين ولا أثر ؛ فرحم الله أسلافنا وعوضنا خير العوض فى بعيد ماضينا الذى حالت عليه أحوال وتقلبت أزمان ؛ ورحم الله منطق مع هذا التراث ، ما دام قرن أو أكثر لا يدع عيناً ولا أثراً ، وما دامت الحياة فى الدنيا جارية على القلع والترس ، بل ليتها جارية عند السيد على ذلك ، فإن البرسيم يسمد الأرض عندنا للقطن ؛ والفارس فى مكان القلع مستفيد من المقلوع عند الفلاحين لا عند منطق أنا . . .

وإذا رأيت أن الاسلام يؤثر ولا يتأثر ، فتلك منك رغبة فى إكرامه ، لعله لا يحرص عليها ، لأنه لا يحب أن يخالف سنن الله التى لا تتبدل

وقلت : « الواجب ألا يعتقد مسلم خلافه هو كذا وكذا » فقلت لك فهذا الاعتقاد أصل من أصول الاسلام لا يصح أن يجرى فيه الخلاف إذن ، فعجبت من ذلك ، وسألتني بأى منطق استنتجت من قولك ذلك ، وأقول لك إنه بهذا المنطق المحتاج إلى الاصلاح وقع هذا الكلام فى عبارتك ففهمته ، ثم كنت ذكرت ياسيدى فى هذا المجال أول ما ذكرت : الضلال والزيغ ومحاربة الاسلام فتركت لك ذلك أولاً ثقة بجميل غيرتك ؛ وأما الآن فأقول لك : إن هذا الكلام الذى كنت ذكرته عن عجيبك من وزارة الأوقاف الاسلامية كيف تقول كذا وكذا فى الفقه ، ومنى كيف أقرر هذه الضلالة وأفسرها ؛ هذا الكلام كله هو الذى يجعلنى أفهم — ولو لم تقل — أنك ترى هذا أصلاً من أصول الدين يكفر منكره ؛ ولا تتأول للمخالف فيه حتى يهون أمره عليك ولا تغضب

وأخيراً أقول للسيد بجرأة المؤمن ، وواجب النصح ، ولو غضب أو قذف : أولى لى — أنا أولاً — ثم لحضرتك ثانياً ، أن ندع المناقشة فى تاريخ القانون الرومانى لدراسة يحق لها أن تتكلم فى هذا أو ترتئى فيه ؛ لا لمقال ينشر فى سنغافورة بعد خمسة وعشرين عاماً من نشره فى مصر ؛ وهو كل بضاعتنا وما تدور عليه مناقشتنا . والأمثل لنا أن ندرس فقهنا درساً جيداً ، وندرس تاريخه درساً عميقاً ؛ ويدرس قوم منا الرومان وتاريخ قانونهم ؛ ثم نلتقى بعد ذلك لنبحث عن الحقيقة ، ونتعاون على الوصول إليها ، لا لنكفر كل قائل ، ونتهم كل متكلم ، ونتحدث عن الرومان والاسلام واليونان والعرب والفرنجة والمستشرقين والمبشرين فى صفحة وبقطرة مداد واحدة . تلك نصيحتى إليك ياسيدى أكررها جزاء لك على خالص نصحك لى بأن أغير منطقى ؛ وإنى لعلى أتم استعداد لتغييره لو كان منطقى أنا ، لكنما المنطق وحدة عقلية إنسانية لا يد لى فيها ولا يد لك بتغييرها . فنبهنى أصلحك الله إلى ما أحيد عنه من منطق الانسانية ، ولا تخلق لنا منطقاً خاصاً بنا فننعزل عن الدنيا ؛ وكفانا ما كان من عزلة وانقطاع . وهذا الذى بينت هو الذى منعنى من الخوض معك فى مناقشة العلاقة بين القانونين — الرومانى والاسلامى — وهو الذى تجنبته منذ كتبت أول ما كتبت وحين كتبت آخر ما كتبت

وإذا كنت — وحق المنطق وكرامة العقل — لم أغالطك مطلقاً ، فإنى وحرمة الاخوة الاسلامية لم يدر بخلدى أن أحقرك بل أنا أحقر من ذلك ، والحق أجل منى ومنك . والسلام عليك ورحمة الله

أمين الخولى

إلى الشيخ اللغوى ... و(فلان)

الوظيفة والموظفون

للأستاذ على الطنطاوى

اعلم — أعزك الله — أن الوظيفة ليست غُلاً فى العنق ، ولا قيداً فى الرجل ، وليست مقايَضَة أو مُبادَلة ، آخذ فيها الوظيفة[1] باليمين ، لأعطى الوجدان بالشمال ؛ ولو أنها كانت كذلك ، لعزفت عنها واجتويتها ، ونفضت يدى منها ، ولآثرت أن أبيع خزانة كتبى كرّة أخرى ، أو أقضى وأسرتى خِمْصاً ، على أن آكل خبزى مغموساً بدم الضمير . . . وعلى أن أكفر بالفضيلة ، وأومن بالمصلحة ، فأزن كلّ شىء فى الدنيا بميزان صنجاته الدنانير ، وأبصر كلّ ما فى الكون من ثقب القرش ، وأفكر إذ أفكر بعقلى الذى فى كيس نقودى ، لا بعقلى الذى فى رأسى ، فاختزل المنطق كله فى قضية واحدة ، هى الأولى والأخرى ، وهى الحق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهى الكتاب المعجز الذى لا يُفرّط فيه من شىء ، ولا يعجزه شىء ، فيكون المنطق كله هذه القضية : تحصيل المال واجب ، وفى هذا الأمر تحصيل مال ، فهذا الأمر واجب . . وضع مكان (هذا الأمر) ما تشاء من أفعال اللؤم والخسة ، والكذب والنذالة ، والضعة والفسولة ، تنتظم القضية وتستقيم ، وتصح وتطرد . . . . ولا يبقى فى الدنيا ردىء ولا فاسد ، ولا منكر ، ما دام معه المال !

لا — يا سيدى — لست أسلك هذه الطريق التى لا أزال أحذّر منها من لم يسلكها ، وأصرف عنها سالكيها ، وإن كان سالكوها هم الكثرة من موظفينا وعلمائنا ، ومن كل ذى وظيفة ، أو صاحب صلة بالحكومة ، حتى أن الرجل من هؤلاء ليأتى الأمر يعترف أنه مؤذٍ للأمة ، مُنافٍ للفضيلة ، مناقضٌ للشرف ، فيحتج له بأن مصلحته تقتضيه ، ومعيشته تستلزمه ، وأنه رجل (عاوز يعيش . .) ولا يعيش من لا يساير وينافق ، ويذلّ ويتزلّف ، لا يدرى الجاهل أن المعيشة على الصّعتر مع الشرف ، خير من حياة النعيم والترف ، من غير فضيلة ولا شرف !

* * *

ومن أنبائك — أعزّك الله — أن الموظف لا يحق له أن يفكر إلا بعقل رؤسائه ، ولا يرى إلاّ بعين أمرائه ، فلا يحقق من الآراء ما أبطلوا ، ولا يقبل ما ردّوا ، ولا يوقر ما سفّهوا ، ولا يرى ما استقبحوا حسناً ، ولا ما كتموا ظاهراً ، ولا ما صغّروا كبيراً ، ولا ما عظموا حقيراً ؟ أو لو كان رؤساؤه مخطئين ، أو لو كانوا لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ؟

ومن ذا حظر عليه ما أبيح للناس ، ومنعه ما منحوا من حرية التفكير ، وحرية الرأى ، وحرية القول ، ولماذا يشتهى من الطعام ما يعافه رئيسه ، ويستحسن من أبيات الشعر وأصوات الغناء ما يستهجنه ويستثقله ، ولا يكون عليه فى ذلك من حرج ، ثم لا يتخذ له من الآراء غير رأيه ، ومن المذاهب غير مذهبه ؟ ولماذا لا ينشر هذا الرأى ، ويؤيد هذا المذهب ، ما دام لا يأتى محرماً فى الشرع ، ولا ممنوعاً فى القانون ؟ . .

والوظيفة — يا سيدى — عَقْدٌ بين الدولة والموظف[1] ، على أن يعمل عملاً بعينه ، على جُعْلٍ بذاته ، أفهل يعمل الأجير فى الدكان ، والعامل فى المصنع ، والنادل فى الفندق ، والخادم فى البيت ، وكلُّ مأجور من الناس فى عمل جلّ أو قلّ ، علا أو سفل ، فاذا أكمل عمله وجوّده ، استحق الأجر ، وانطلق حراً فى وقته ، يقضيه على ما أحب ، حراً فى ماله ينفقه على ما شاء ، حراً فى رأيه ينحو به النحو الذى أراد ، ويسوقه المساق الذى اختار . . . ثم لا يكون الموظف حراً أبداً ، ولا يملك من أمر نفسه شيئاً ؟

وماذا علىّ وأنا مدرس إذا أنا أعددت درسى وألقيته ، وقرأت وظائف تلاميذى وصححتها ، وفعلت كل ما يوجب علىّ القانون أن أفعل وزدت على الواجب النوافل ، أن أؤلف وأكتب ، وأنتقد الأخلاق والكتب والعادات ، وأساهم فى الجهاد الاصلاحى ، وأحمل القسط الذى أطيقه من أثقال الأمة ، ومن ذا يحمله إذا لم أحمله أنا وأمثالى من الموظفين والمتعلمين ؟ وكيف تتقدم الأمة وتسير فى طريقها إلى غايتها ، إذا لم تجد من أبنائها من يحمل أثقالها ؟

أفهل يريد سيدى — أعزه الله — أن أمحو ملكة الكتابة

(١) الوظيفة هى الراتب ، والتوظيف تعيين الوظيفة ، وإذا نحن أطلقنا الوظيفة على العمل نفسه فأنا نتبع فى ذلك العرف السائد

(١) لست أعنى العقد الاجتماعى نظرية روسو المعروفة ، فذاك شىء قد سقط اليوم من قائمة العلوم ودخل فى سجل التاريخ

من رأسى ، وأطمس نور البصيرة من قلبي ، وأسدل على عيني حجاباً حتى لا أرى فأُسرّ فأشكر ، أو أبتئس فأنقد ، وأهجر الكتب حتى لا أقرأ فيفتح علىّ الكتاب طريقاً إلى مقالة ، وأتعزّل الناس حتى لا أسمع حديثاً فأكتب هذا الحديث ، أو قصة فأدوّن هذه القصة ، وأدل على مكان العبرة منها ، وموطن العظة فيها ؟ أفهل يريد سيدى أن أذهب إلى غار في الجبل فأحبس نفسي فيه كيلا أكتب فأزعج حضرته ؟

أوهل توجب الوظيفة على صاحبها أن يكون عبداً لرؤسائه ، مسخراً لأغراضهم ساعياً في مصالحهم ، ولو كانت الطريق إلى إرضائهم طريقاً ملتوية معوجّة لا يسلكها رجل يعرف ماهى الفضيلة ، ويدرى ماهو الشرف ؟

وهل توجب الوظيفة على الموظف أن يكون مبتوراً من جسم الأمة ، فلا يشعر بشعورها ، ولا يألم لألمها ، ولا يحس أنه منها ، ولا يشاركها في شيء من عواطفها ، في حين أن المفروض في الموظف أنه من أرق أبناء الأمة فكراً ، وأوسعهم اطلاعاً ، وأشدّهم شعوراً « بالواجب العام » ؟

أوهل يأخذ الموظفون رواتبهم من صندوق الأمة ، ثم ليناموا آمنين إذا هي خافت ، ويضحكوا فرحين إذا هي تألمت ، ويتخموا قارهين إذا هي شقيت ، ويأكلوا مسرفين إذا هي جاعت ؟

كلا ! كلا ياسيدى ، فالموظف من الأمة وإلى الأمة ، وليس في البلد شعب وموظفون ، ولكنّ فيه شعباً واحداً ، يشعر بشعور واحد ، ويصدر عن مبدإ واحد ويسعى إلى غاية واحدة ، ولأن تعرف أنت هذه الحقيقة فتعمل بها ، أولى من أن أنزل أنا على رأيك ، وأخضع لارادتك ، فيما يؤذى الحقيقة وينافيها

كلا ! لقد انقضى ذلك العهد الذى كان الموظف فيه مسئولاً أمام رئيسه ، وأصبحنا اليوم وكلنا مسئولون أمام الأمة والتاريخ ؛ وليس هذا الراتب منحة منك حتى تمنّ به علىّ ، ولكن راتبك أنت منحة من الأمة – التي أنا من أبنائها تمن هي بي – عليك !

***

وبعد ؛ أفليس مما يجب على قادة الفكر ، وأرباب الأقلام ، أن يعرّفوا الناس حقيقة الوظيفة والموظفين ، وحق الأمة عليهم ، وأمل الأمة فيهم ؟ أوليس يجب عليهم معالجة هذه النواحى من أخلاقنا ، وبسط الكلام فيها ، وتحذير السالين منها ، ومداواة المصابين بها ؟ . . .

علي الطنطاوي

إلى الأستاذ محمد كرد علي

أغراض الاستشراق

للأستاذ محمد روحي فيصل

العجالة التى أسوقها اليوم إنما كتبت منذ عهد بعيد ، وهى كما ترى أو كما سترى تحكى أغراض المستشرقين الدينية والسياسية ، وتبين البواعث النفسية التى قام عليها تاريخ الاستشراق ، وتمدو ألوان التخاذل العلمى والوجدانى التى خضعت لها هذه الطائفة منذ نشأتها الأولى ! ولقد كنت أريدها دراسة قوية مستفيضة موفقة تشرح ما تتوغر به صدور القوم من الحقد والموجدة ، وتفضح ما ألم بالقلوب من النزوات البشعة والاهواء المريضة ؛ وأذكر أنى ما قرأت كلمة في هذا الصدد لكاتب من الكتاب الا اعتادنى الحنين الى تكملة ما شرعت فيه قديماً ، واستئناف تبيان ما عميت أو تعامت عنه البصائر والأفهام

كان يعوقنى عن ذلك أمران ، هما الدعامة التى ترتكز عليها أسباب الكتابة والنشر ، أولهما فقدان الصحيفة العربية الاسلامية الشرقية التى ترحب ببحوث كهذه التى نعتزم إذاعتها في الناس ، والتى تشجع الكاتب الباحث على المضى فيما أخذ به نفسه من الدراسة الحرة الخالصة ؛ وثانيهما غموض الحجة وعلهلة المنطق والتواء التاريخ للظهور على المستشرقين والتغلب على مزاعمهم ودحض آرائهم واثبات خطئهم ؛ فليس يكفى عندنا أن نتهمهم في ابهام ، ونبغضهم لغير سبب ، ثم نحمل عليهم ونرشقهم بقارص الكلام وعنيف السباب ؛ إذن لتجنينا عليهم فظلمناهم ظلماً كبيراً ، ولكانت دعوانا التى نتقدم بها عاثرة خاسرة !!

أما الصحيفة العربية الاسلامية فقد عثرنا عليها واهتدينا اليها ، و « الرسالة » السمحة لن تضيق أبداً بما نعتقد أنه الحق ، أو تتبرم بنفى ما غشى العرب والاسلام من ضمة الخطأ والعدوان ، وهى المجلة الراقية التى تعتز بالكرامة وتعتصم بالنبل ثم تصل الماضى بالحاضر وتربط الشرق بالغرب على هدى وبصيرة ؛ وأما الحجة والمنطق والتاريخ فقد توفرت لدينا وأسلست عناصرها لنا

واتضحت فى ذهننا ، وإنا لنرجو أن نؤثر فى الأسلوب والعرض جانب الحق والانصاف والهدوء على جانب التحامل والملامة والغضب

وأحب قبل كل شيء أن أقول لعلامة الشام الأكبر ومؤرخها البارع الأستاذ محمد كرد علي إنه إذا قدر أن ينشر المستشرق برتزل كتابي "القنع والنقط نشراً حسناً ويضع لهما فهرساً خاصاً يسهل على الطالع أمر المراجعة والتنقيب ، فما ينبغي أن توجه الشكر والثناء إلا للناشر الفاضل وحده ، أما أن نرسل الكلام إرسالاً ونمتدح المستشرقين كافة فهذا ما ينكره العلم ولا يرضاه الحق ، فتقول : « هذه عناية علماء المشرقيات بكتب الاسلام ، أما خاصة أهله اليوم فساهون لاهون ! وليت سادتنا علماء الأزهر والمعاهد المماثلة له فى القطر وأساتذة العلوم وغيرهم يتروون فى عمل هؤلاء الأعاجم ، وقد كان عليهم أن يأخذوا باليمين آثار السلف ليحيوها قبل أن تنتظر فى الخزائن عطف الغرب . إننا مدينون لعلماء المشرقيات من الهولانديين والجرمانيين والفرنسيين والبريطانيين والايطاليين والأسبانيين وغيرهم من شعوب أوربا وشمالى أمريكا بما تفضلوا به علينا من نشر أسفارنا ، أحسن الله اليهم بقدر ما أحسنوا لمدنيتنا وآدابنا » (١)

لقد تعودنا أن نكيل المديح للمستشرقين كيلاً ، وأن ننعت جهودهم بأنها بذلت لخدمة لغتنا وأدبنا وتاريخنا ، وأن ما نشروه من البحوث والمخطوطات إنما كان لذات العلم خالصاً ، وترانا نرجع اليهم كلما اختلفنا فى رأى أو حزَّ بنا أمر لنستوحى منهم الحكمة وفصل الخطاب . هم يتمتعون منا بثقة لا حد لها ، ولكن هل عرفنا أغراضهم وغاياتهم ؟ هل تبينا حقيقة مقاصدهم ؟ ذلك ما نحاول الكشف عنه اليوم ، وسيتضح لكل ذى عينين باصرتين أن وراء الأكمة ما وراءها . . . ! !

ولسنا ننكر أن بين المستشرقين طائفة معتدلة قد أخلصت فى دراستها الاخلاص كله ، فنظرت الى الأدب العربى والتاريخ الاسلامى والى كل ماأنتجه الشرقيون من دين وعلم وفلسفة نظرة مجردة عن الهوى كما يتطلبها البحث العلمى الحديث ، وهى لذلك تستحق أجزل الثناء ، بل إنها لما ينبغى أن نفاخر به أبد الدهر ، إلا أن أفراد هذه الطائفة إذا عدُّوا لا يتجاوزون عدد الأصابع ، وهم إزاء هذه الكثرة الهائلة المغرضة من المستشرقين لايذكرون شيئاً ؛ وقد قيل إن النادر لاحكم له . فأنت لو تصفحت هذه الأسماء : مرجليوث ، لامنس ، ماسبرو ، دى ساسى ، فلوغل ، كارليل ، كولنبرك ، جنستون ، ستونتن ، هوغتن ، غابلنتس ، سيدليو ، كوسان دى برسفال ، كلابروت ، جيب ، دى لاغرانج رينو ، مونك ، پرون ، كازميرسكي ، كسفارتن ، برنستين ، فترر ، وولف ، بورغستال ، جونس ، غوتوالد ، كريستيانوفتش ، خانيكوف ، بوتجانوف ، سيانكوفسكى ، سافلياف ، غريغورياف ، تورنبرغ ، دوزى ، بروكلمان ، غويدى ، غولد زهير ، هيار ، فبرى ، زترستين ، نالينو ، هوداس ، موسل ، بيكر ، دى فو ، ماسينيون ، هرغرونى ، فولرس ، ارنولد ، مورتمان ، لشاتلييه ، بوفا ، كايانون ، هاليفى ، مكدونل ، دوقال ، بارت ، ليفى ، كازانوفا ، شوفين ، كولينيون ، دافيدس ، لامبروز ، نافيل . لشككت فى حسن الغاية من أعمال الكثير منها ، ولحرصت على أن تقصر الثناء على بعضها فى تحفظ واعتدال ! !

* * *

كان الباعث الأصلى للأوربيين على تعلم اللغات الشرقية دينياً محضاً . فقد هالهم أمر العرب ، وأدركوا سريعاً أن هؤلاء القوم الفاتحين إنما يريدون فيما يريدون الاستيلاء على أوربا بأسرها لنشر تعاليمهم الجديدة والقيام بما أوصاهم به سيدهم الأعلى ونبيهم الكريم محمد بن عبد الله ، والتاريخ يحدثنا انهم امتلكوا حقاً اسبانيا الواسعة ، واجتاحوا جزءاً كبيراً من جنوب فرنسا حتى مدينة بواتيه Poitiers أو بلاط الشهداء كما يطلق عليها مؤرخو العرب ، ثم احتلوا جزيرة صقلية وشرعوا فى بسط نفوذهم الأدبى على ايطاليا . . . وايطاليا كما تعلم معقل المسيحية الحصين ، ومصدر أشعة الدين ، فعزم الغربيون على أن يحاربوا الاسلام والشرق بكل قواهم متخذين جميع الوسائل الفعالة

لجأوا إلى السيف أولاً فقاتلوا وقاتلوا حتى إذا لم يفلحوا كل الفلاح ولم ينالوا ما يبتغون عمدوا إلى وسيلة أخرى أمرُّ من تلك وأدهى ! فقد عقدوا مؤتمراً كبيراً فى ڤينا عام ١٣١١ ميلادية ترأسه البابا كليمان الخامس ، وقرروا أن تؤسس فى باريس وبولون

(١) مجلة « الرسالة » عدد ١٠٨

وأكسفورد وسلمنكا مدارس خاصة تدرس فيها العربية والعبرانية والكلدانية لتخريج وعاظ أشداء يستطيعون تنصير المسلمين واليهود أو تشكيكهم فيما هم فيه مؤمنون . وأنشأ الدومينيكان والفرنسيسكان[1] في أديارهم دروساً في هذه اللغات ، فغدت إيطاليا في ذلك العهد موطن علم الشرقيات . على أنهم كانوا يُعنون بصورة خاصة بالعربية والعبرية ، يأخذون الأولى عن السوريين الموارنة كبني السمعاني ، والثانية عن الأحبار الربانيين . فانتشرت العربية بين الطليان انتشاراً عظيما ، حتى أن تجار البندقية وجنوة وبيزا ونابولى كانوا ينظرون إلى أن تعلمها من الحاجات الماسة للحياة على نحو ما ننظر اليوم إلى اللغة الفرنسية أو الانجليزية . وعقيب اختراع الطباعة كان قانون ابن سينا أول كتاب عربي طبع في روما . ولما قامت الحركة البروتستانتية في القرن الخامس عشر وأمدها لوثر بروحه ازدادت عناية الغربيين بالعبرية والسريانية والكلدانية للبحث عن النص الأصلي للتوراة ، وتبع ذلك قيام البابا غريغوار الثالث عشر وأربان الثامن بتعليم اللهجات الشرقية عملياً ليستفيد منها المبشرون بالنصرانية . وفي عام ١٦٢٧ أنشئت مدرسة « انتشار الايمان » التي خرّجت الألوف من علماء الشرقيات ؛ وكذلك أنشئت في فرنسا على عهد الوزير كولبير مدرسة « الشبان » التي أذاعت الفارسية والتركية وكثيراً من القصص الشرقية كألف ليلة وليلة وغيرها من الرسائل .

وفي نهاية القرن السابع عشر نشر اليسوعيون أتباع لويُولا اللغتين اليابانية والصينية وثقافتهما

على أن الاستشراق بعد ذلك قد تبدلت بواعثه ، فغدا يخدم السياسة بعد أن كان يخدم الدين ، ذلك لأن في القرن الثامن عشر ظهرت طائفة من الكتاب كفولتير وغيره حملت على الدين ورجاله حملة منكرة ، وتناولته بالسخرية والتهكم المر ، غير مبقية على شيء من احترامه القديم وسلطانه النافذ ؛ ولأنه قامت في ذلك الحين ضجة الاستعمار وثار الغرب على الشرق يريد استعباده . فوضع المستشرقون أنفسهم تحت تصرف رجال السياسة ، يُدلون إليهم بما يعلمون عن الشرقيين لتتمكن أقدامهم في بلاد الشرق ، وتكون لهم على أهله سلطة خالدة .!!

ونلاحظ في هذا الطور الجديد تأليف الجمعيات في مختلف المدن الشرقية ، فقد أنشأ المستشرقون جمعية العلوم والفنون في باتافيا عام ١٧٧٨ ، والجمعية الأسيوية في البنغال عام ١٧٨٤ ، والجمعية الأسيوية في بومباي عام ١٨٠٥ ، والجمعية الأسيوية في باريس عام ١٨٢٢ ؛ وقد بذلت هذه الأخيرة جهوداً جبارة في دراسة الشرق ولغاته وتاريخه لا سيما اللغة العربية والعقلية العربية والثقافة العربية وما يتصل بذلك كله من دين وفلسفة ، وعلم وأدب ، لتقدم للحكومة آخر السنة تقريرها المعروف الذي لا يضم بين جوانبه حقائق عليها العدالة ويسمها الواقع ، وإنما ينطوي على سموم من الحقد وأثر من المغالطة ! وهذه المجلة الأسيوية la revue Asiatique التي ما تزال حتى الآن تصدر في باريس مرة كل شهرين إنما هي أثر من آثار هذه الجمعية . . .

لقد كان المستشرقون على اتصال دائم بوزارة الخارجية ووزارة المستعمرات ، يترددون على رجالاتهما لمعرفة ما جدّ وتغير من القرارات ، وأن هذه البعثات التي يقومون بها إلى بلاد الشرق بين حين وآخر ليست بعثات علمية كما يزعمون تقصد وجه العلم خالصاً ؛ وإنما هي في الحقيقة بعثات سياسية مصدرها هذه الرؤوس المفكرة الماكرة الجاثمة في الوزارتين المذكورتين ، تطوف أنحاء الشرق باسم العلم منقبة باحثة ، حتى إذا ما ملأت حقائبها بما تريد عادت إلى وزارة الخارجية ووزارة المستعمرات تصب فيهما معلوماتها طروبة فخورة ! وكثيراً ما كانت هذه

(١) طائفتان هما بمثابة جنديين قويين من جنود البابا ، تهيجان الحياة الدينية في نفوس الشعب ، وتحاربان البدع المستحدثة التي لا تجيزها الكنيسة الكاثوليكية ! أسس الأولى اسباني اسمه Saint Daminique هاله تفشي المنكرات وإهمال القسس واجب الوعظ والارشاد ، فطلب إلى البابا عام ١٢١٥ ميلادية إنشاء فرقة تقوم بنشر تعاليم المسيح وتجديد الطاعة له . وأسس الثانية عام ١٢١٠ ميلادية ايطالي غني اسمه Français d' Assise هاله انغماس الناس في الترف ، وإسرافهم في اللهو والمجانة فتنزل عن ماله كله للفقراء وطفق يحيا حياتهم للدتمة ، يمشي في الأسواق متسولاً حفاء بالياً ويرتدي ثوبا من الصوف أسمر وقد اتزر من فوقه بأزار مشدود حول وسطه ، فحسبه الناس لأول وهلة معتوها ممروراً فراحوا يعبثون بمرآه ويتندرون به في أسمارهم ويهزأون بتعاليمه الخشنة القاسية ثم كثر أنصاره واشتد ساعده وذاع مذهبه

والطائفتان كانتا متصلتين بالشعب مباشرة أقوى اتصال ، تمتزجان بعامته وخاصته ، فتمكيان في خياله ما تشاءان ، وتنصبان في وهمه ما تهويان ، بخلاف الرهبان « الآخرين » الذين كانت تفصلهم عنه هوة عميقة بسبب انكماشهم وجودهم في الكهوف والأديار

البعثات « العلمية » تمنع من دخول بعض البلاد الشرقية ، وقد تطرد منها أحياناً على أسوأ حال !!

* * *

وبعد ، فلو نظرنا إلى بحوث علماء الشرقيات التي خطوها عن الأدب العربي والعقلية العربية ، وفلاسفة العرب لاستخرجنا من ثناياها براهين جمة تبين لنا بوضوح كيف تندفع هذه الطائفة وراء الهوى والغرض لتثبت قضية من القضايا على أساس تجاهل الواقع وطمس الحقيقة ؛ هـذه نظرية « السامية والآرية » التي يؤمن بها أغلب المستشرقين والتي تصبغ دراساتهم بلون خاص تصف العرب والجنس السامي على العموم بأنهم قوم غرباء عن العلم والفلسفة ، لا يحسون بالجمال والفن ، ولا يعرفون ما يسمى بالأنظمة السياسية والمدنية . يقول أرنست رينان[1] في الفصل الأول من كتابه في تاريخ اللغات السامية : « إن اللفظين اللذين استعملا ولا يزال استعمالها جارياً إلى الآن ، للدلالة على سير العقل نحو الحقيقة ، وهما علم وفلسفة ، قد كانا غريبين عن الجنس السامي تقريباً . فالبحث التفكيري المستقل الدقيق العميق ، أو بعبـارة أخرى التفكير الفلسفي للبحث عن الحقيقة ، يبدو أنه كان وقفاً على الجنس المسمى بالهنـدي الأوربي (الآري) الذي كان يبحث منـذ أقدم العصور إلى الآن لتفسير الله والانسان والعالم تفسيراً عقلياً ، والذي ترك وراءه في كل مراحل تاريخه آثاراً فلسفية خاضعة لنواميس تطور منطقي ، أما الساميون فانهم بدون تفكير أو تدليل توصلوا إلى أسمى صورة دينية عرفها التاريخ فالمدرسة الفلسفية موطنها اليونان والهند ، في وسط قوم طلعة يهتمون كثيراً بمعرفة أسرار الأشـياء . أما المزامير والأناشيد والكتب المنزلة والحكم الرمزية أو الموضوعة في شكل ألغاز فهي من نصيب الجنس السامي

« والجنس السامي أدنى من الجنس الآري إذا قورن به ، فهو — أي الجنس السامي — ليست له هذه الروحانية السامية التي عرفها الهنود والألمان فقط ، وليس له هذا الاحساس بالجمال الذي بلغ حد الكمال عند اليونان ، وليست له هذه الحساسية الرقيقة العميقة التي هي الصفة الغالبـة عند الكلتيين (سكان فرنسا وجزء من البلجيك) ، وإنما الساميون بديهتهم حاضرة ولكنها محدودة ، وهم يفهمون الوحدة بشكل غريب ، فالتوحيد هو أهم خصائصهم وهو الذي يلخص ويفسر جميع صفاتهم

« من آثار التوحيد عند الساميين التعصبُ ، فعدم وجود التسامح الديني عنـد الساميين هو نتيجة ضرورية لمذهبهم في التوحيد ، ومسألة النبوات والوحي هي من المسائل التي تخص الساميين ، حتى أن القرآن لم يجد تقسيما للشعوب غير تقسيمهم إلى كتابيين وغير كتابيين

« والساميون تنقصهم الدهشـة التي تدعو إلى التساؤل والتفكير ، والتي تدعو إلى البحث عن الحقيقة ، لأن اعتقادهم في قدرة الله يجعلهم لا يدهشون لشيء ، فاذا رأوا شيئاً عجيباً قالوا : « ربنا قادر على كل شيء » كما أنهم في حالة الشك يختمون رأيهم بقولهم « الله أعلم » فاذا اعترض على ذلك بظهور حركة علمية فلسفية عند العرب في عصر العباسيين وجب أن يكون الجواب على ذلك إنه من الخطأ وسوء الاستعمال أن نسمى فلسفة منقولة عن اليونان بالفلسفة العربية ، مع انه لم تظهر لها أي مبادئ أو مقدمات في شبه جزيرة العرب مكتوبة بالعربية ؛ وهذا هو كل ما في الأمر ، كما انها لم تزدهر إلا في الجهات البعيـدة عن بلاد العرب مثل اسبانيا ومراكش وسمرقند ، وكان معظم القائمين بها من غير الساميين وكثرتهم من الفرس

« والتوحيد له تأثير أيضاً في الشعر العربي ، لأن الشعر العربي يعوزه الاختلاف والتنويع ، فموضوعات الشعر أي أغراضه محدودة قليلة العدد جداً عند الساميين ؛ والواقع أن هذا الجنس لم يعرف إلا نوعين من الشعر هما الشعر المجازي عند اليهود والشعر الشخصي الغنائي عند العرب ، والأبطال في هذا الشعر هم نفس منشئيه . وهذه الصفة الشخصية إلى الغاية التي نجدها في الشعر العربي واليهودي ترجع إلى خصيصة أخرى من خصائص النفس السامية وهي انعدام المخيلة الخالقة عندهم ، وتبعاً لذلك عدم القدرة على الاختراع .. !!

« والساميون ينقصهم الاحساس بالتنويع ، فالتشريع السامي البحت لم يعرف مطلقاً إلا نوعاً واحداً من القصاص هو

(١) عالم فرنسي ولد عام ١٨٢٣ وتوفي عام ١٨٩٢ ، كتب في التاريخ وبحث في اللغة ثم قارن بين الشعوب وانتهى كما ترى الى هذا الخلط العجيب الذي لا يقول به الجاهلون بله العلماء !

الموت . وملكة الضحك معدومة عند الساميين ، حتى إن الفرنسيين وهم شعب ضحوك ينظر اليهم عرب الجزائر باستغراب ، ويعتبرون ذلك منهم موضع دهشة بالغة

« والساميون عندهم نقص تام في كثير من الفنون الجميلة مثل صناعة التماثيل والتصوير ، وقد حال دون وجودها عندهم تحريم الدين من جهة وانعدام الخيال والاختراع من جهة أخرى وهما شرطان لازمان لهذين الفنين . والموسيقى وهي الفن الشخصي إلى الثانية هي الفن الوحيد الذي عرفه الساميون

« والأخلاق نفسها ينظر اليها الساميون نظرة تخالف نظرتنا اليها ، فالسامي لا يعرف مطلقاً أن عليه واجبات إلا لنفسه ، وإذا طلبت اليه أن يحافظ على كلمته ويبر بوعده وأن يقيم العدل بلا تحيز قائما طلبت اليه مستحيلاً ، فالأنانية تتمثل فيهم بأجلى مظاهرها » (١)

لن نناقش الآن هذه النظرية أو نقول فيها رأياً ، لأن ذلك مما يطول بنا ، وحسبنا أن ندل على شيء مما يعتقد المستشرقون ، ومع أن تسعين في المائة من هذه النظرية خطأ واختلاق فقد أحلها الغربيون من نفوسهم المحل الأرفع لأنها توائم نزعاتهم وتتفق وميولهم الطافرة إلى السيطرة والاستعمار

* * *

لست أدرى ما الذى يرضينا في المستشرق ؟ ! آلعلم النزيه ، وقد رأينا أنه إنما كان لآراب أخَر ، أم الذوق الأدبي ، وليس من شك عندنا أنه بعيد عنه بعد الأرض عن السماء ! فالمستشرق مهما تضلع من اللغة العربية ، وأخذ من الثقافة الأدبية ، وتغلغل إلى الروح الاسلامية فلن يدرك أبداً غاية الأدب وأثره وحدوده ولن يستطيع بحال من الأحوال أن يتذوق جمال قطعة أدبية أو قصيدة فنية على نحو ما يتذوقها العربي ! هو يفهم القرآن ولكنه لا يخشع عند سماعه أو تلاوته ، ويشرح القصيدة العربية غريبها وبديعها وعروضها ولكن أذنه لا تطرب لهذه الرنة الموسيقية المبثوثة في أطواء الشعر العربي ؟

حمص — محمد روحي فيصل

(١) العبارات هنا من ترجمة الأستاذ صادق برسوم مطر



صورة وصفية

عبـــد السميع

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المــازني

كان كل امرئ يعرفه — أهل الحي ، وزوّار الامام الشافعي ، والأجانب السياح الذين يجيئون إلى هذه الناحية ، ليروا مقابر الخلفاء والماليك ومدافن « الباشوات » . وكان « عبد السميع » — كاسمه — سميعاً ، ولـكنه غير بصير ؛ وكان له حجر عال عريض يقعد عليه ، ولايريمه ، في الشتاء والصيف ؛ ولم يكن يبالي لا الشمس ولا الرياح ، ولا المطر ولا التراب ؛ وكان يظل نهاره على هذا الحجر ، فاذا غابت الشمس ودخل الليل ، اختفى ، كأنما ابتلعته الأرض ، أو انشق له الحجر فغاب فيه ، فـكل ما يعرفه الناس من أمره أن هذا مكانه قبالة المسجد ، وأن كل راكب يميل اليه ويترجل عنده ، ويضع بين أصابعه زمام دابته ، حتى يفرغ من الصلاة في المسجد أو غيرها مما جاء له ، فينقده القرش أو المليم ويتناول منه العنان ويحييه ويمضي . وكان « عبد السميع » يعرف كل رجل وامرأة وطفل في الحي ، وكل غريب ألقى اليه بزمام حماره أو بغلته أو فرســه أو مهره ، من صوته ؛ وكان من عجائبه أنه يعرف — وهو ممسك بالأعنة — حمار مَن الذي نهق ، وأي هذه الدواب تملك لجامها ، وأي البغال مزنوق فيرفه عنه ويرخي له الرباط الذي تحت حنكه ، وأي حمار تفلتت الشكيمة من فمه ، فينهض اليه ويردها إلى مكانها من فيه ، وأي الأفراس انحل إبزيم منطقته فيعقده ، أعني يدخل لسانه في طرفه الآخر . وكان كثيراً مايشير على أصحاب الدواب باتخاذ المراشح تحت لبد السروج لتنشيف العرق ، أو بتضمير الفرس إذا وجدها سمينة ، أو برفع الهماز إذا أحس بيده آثار وخزه في جلدها ، أو بتغيير السرج إذا وجد له عقراً بظهرها ، فقد كان رحيما رقيق القلب

وكان يأبى أن يتخذ عصاً يتوكأ عليها ، ويجس بها الأرض ويقدر لرجله موضعها قبل الخطو ، فـكان يمشي مطمئناً واثقاً ، كأنما يرى الطريق ، ويلقي التحية إلى الناس بأسمائهم ، في ذكا كينهم حين يبلغها ، بل كان يعرف المرء من دبة رجله على الأرض ، فيقول له : « مالك مستعجلاً يافلان ؟ خيرا ، إن شاء الله ! » وكان — ولايزال — هناك طريق أعلى من الميدان الذي أمام المسجد يؤدي اليه سلم ، درجاته متهدمة ، فكان إذا بلغها يرق فيها كأنه صبي في العاشرة من عمره ؛ ولـكن أعجب من هذا كله أنه كان يركب الخيل والحمير والبغال ، ويركضها في الطرق والسكك التي ألفها ، فاذا اعترضه زحام أو قطيع من الغنم ، حبس الدابة ، ثم أرخى لها اللجام ، وتركها تتخلل الزحمة حتى إذا أحس خلو السكة نَقَر[1] بها ، ازعجها ويستحثها ؛ فقد كان كما أسلفت شـديد الرفق بالحيوان ، لا تطاوعه نفسه حتى على نَكْزه بقدمه العارية

وكان دائم البشر ، لايتجهم ولا يكتئب ، ولا يبدو للناس إلا طلق المحيا ، ضحوكا ، طيب النفس ، حلو الدعابة ؛ ولـكن غزله كان فيه بعض العنف ، فقد كان إذا داعب فتاة لا يحلو له إلا أن يقبض على شعرها ويجذبه اليه بقوة فينتتف بعضه ؛ وكانت الفتيات يحذرن ذلك ويتقين أن يكن منه بحيث تنالهن يده

وجاء الشتاء ، وجاء معه طبيب عيون ألماني ، فأدار عينـه في الصحراء فرأى على جبل المقطم شيئاً كالبناء فأشار اليه وسأل عنه فقالوا هذا قبر الجيوشي — أمير الجيوش — فرجا منهم أن يكون أحدهم دليله إليه ، فقالوا : « بل يكون دليلك عبد السميع » وجاءوه به ، فتعجب ، ولو كان يعرف العربية معرفتها لتمثل بقول القائل :

أعمى يقود بصيراً ، لا أبا لكم قد ضل من كانت العميان تهديه

ولـكن عبد السميع لم يضله ، ولم يندم الطبيب على ثقته به واطمئنانه اليه ، ووجد في صحبة هذا الدليل الغريب كل ما طالعه به وجهه الصبيح من الأنس ، فنشأت بينهما بعد هذه الرحلة صداقة فريدة ، فكان الطبيب يزوره كل بضعة أيام ، ويجلس إلى جانبه على حجره العالي ، ويراعيـه وهو يحرس الخيل والحمير لأصحابها ؛ ووقع من نفسه رفقه بها وحسن تمهده لها ، فقال له يوماً — بعربيته المحطمة — إنه يريد أن يعمل له في عينيه شيئاً ،

(١) النقر أن تلوي لسانك إلى فوق وتلزقه بحنكك ثم تطلقه بقوة فيفرقع

وإنه يرجو أن يرد بذلك بصره عليه ، فضحك « عبد السميع » وقبل . وكان قد ألف أن ينظر الأطباء فى عينيه وأن يسمعهم يتلاغطون بما لا يفهم ، ثم يمضون عنه ويبقى هو على حجره

وجاء يوم نظر فيه الناس فاذا الحجر خال ، ولا « عبد السميع » هناك ، فصارت الأعنة تُلقى إلى صبيان يشدونها إلى مسامير فى الحائط ، وينامون ويتركون الحمير تتراقص

وكان « عبد السميع » راقداً على سرير نظيف فى مستشفى ، وعلى رأسه ووجهه — إلى أرنبة أنفه — الضمادات ، وهو ساكن لا يقول شيئاً ، ولا يبدى ألماً أو ضجراً ، ولا يدع شكه يغلب بشره أو شكره لصديقه ، وكان من العسير أن يعرف أحد فى أى شىء يفكر هذا الراقد المعصوب الرأس . ولعله — لطول صمته على خلاف عادته — كان يجاهد أن يتصور الدنيا الجديدة التى سيريها حين يفتح عينيه عليها ويبصرها لأول مرة ؟ ولعله كان يستهول أن يبصر كل ما عرفه وألفه بحواسه الأخرى ، وكان كل ما يجيب به الطبيب حين يحدثه وهو يغير له الضمادات « إن شاء الله ! إن شاء الله ! » ثم يتحرك كالقلق المضطرب على هذا الفراش الناعم تحت الملاءة النظيفة

وكان الطبيب واثقاً من نجاحه ، فجمع إخوانه — زملاءه — فى صباح يوم ، وحل الأربطة بعناية وحذر ، ثم ترك ضوءاً خفيفاً يدخل فى الغرفة ، وتناول يد « عبد السميع » برفق ، وهو أشد ما يكون اضطراباً وسأله « أترى شيئاً ؟ » فقال عبد السميع — وعلى فمه ابتسامته التى لا تزايله — « صبراً ، صبراً » ، فصبر الطبيب لحظة ثم فتح النوافذ فغمر النور الحجرة وملأتها الشمس ورقصت أشعتها على السرير والجالس عليه ، والأطباء حافون به ، منحنون اليه ، يحدقون فى وجهه وأنفاسهم مسرعة ، وقلوبهم فى حلوقهم ، و « عبد السميع » ساكن ، ووجهه الباهت من طول الرقاد ، إلى النافذة التى تطل على النيل ؛ ثم تحركت يداه ، وارتفعت كفه إلى محياه ، وجعلت أصابعه المرتعشة تتحسس عينيه ، فأدرك القوم أن الطب أخفق ، وتوجع الطبيب الألمانى وأرفضّ دمعه ، فغطى وجهه بكفيه ليحبس عبراته أو يكتم نشيجه ، وسمع « عبد السميع » ما يتردد من البكاء المكتوم فنهض ، وعلى وجهه ابتسامة رزينة ، وتحسس طريقه إلى صديقه المحزون ، ومد يده الخشنة فلمست لحيته المبللة ، فنقلها إلى كتفه

وقال بصوت لا يشى بما عسى أن يكون مطوياً تحت ضلوعه « لا تبك ياصاحبى ! ازجر عينك ، إنه قضاء الله ، ولاحيلة لنا فيه ، ومن نكون نحن حتى ندفعه أو نغيره ! » ثم تلفت ، فأقبلوا عليه يسألونه هل يريد شيئاً ؟ قال : « نعم — صبى يعود بى »

وعاد إلى حجره ، وخيله وحميره ، فلم يغب عنها بعد ذلك مرة أخرى ، ولم يقل لأحد أين كان

ابراهيم عبد القادر المازنى

من مشاهد الشرق

٤ — طائفة البهرا فى الهند

معلومات فى المجتمع البهرى

بقلم محمد نزيه

تتمـــــة

يقول الكهل الوقور محمد على بخش رئيس الوزارة البهرية فى وصف طائفته ، إنها (طائفة تجارية) لا يحيد عن سبيل التجارة واحد من أبنائها ، فاذا تنكب أحدهم هذه الطريق أو ضلّها ، فلاذ بكرسى للحكومة ، أو زاول حرفة من الحرف لم تكن التجارة جل همه منها ، فقد انحرف عن تقاليد الطائفة ، وعق ديانتها ، ورماها فى أمنع حصونها ، فأصاب منها منازل القدسية والحرية والجاه

هى جماعة أقسمت مذ وضعت فى كف الحياة كفها ، ألا تعرف خفض العبودية ولا يعرفها رق هـذا الزمان ، وإنهما ليقتحمان كل شىء إلا هذه الأمة التى أجمعت على ألاّ يكون الوطن المقدس رقعة من الأرض يهون امتلاكها ، ولا يعز اغتصاب ما فيها ومن فيها ، بل هم استغنوا عن الوطن المقدس بالعهد المقدس أن يكون صغيرهم ابن كبيرهم ، وكبيرهم أبا صغيرهم ، وكل كبارهم أشقاء وكل صغارهم أشقاء ، وأولئك وهؤلاء كأنما انتظم أرواحهم جميعاً سمط واحد من شعاع الشمس لا يقطع أبداً . وإذ كان لا بد لهذا الجوهر الأحد من معارف وبواطن تفرقُ بينه وبين سواه ، فان أجلى معارف البهرى ابتعاده عن مخالطة أى امرئ

من غير طائفته ؛ ومعظم بواطنه الحب والمودة والأهبة الدائمة لمعاونة أخيه في مذهبه ، دون تفريق بمختلف الأجناس والمراتب، فاستغنوا بقوادهم عن كل حاجة إلى سواهم ، حتى (الحكومة) يعزفون عن أعمالها ، ترفعاً بأنفسهم عن شعور الحاجة إليها يوماً من الأيام

يقدم البهرى من أقاصي إفريقية على بمبى ، فينزل من قلوب أبناء الطائفة هناك ، منزلة من عاد إلى أمه وأبيه من سفر طويل ، كل بيت من بيوتهم هو ملك يمينه حتى تقر نفسه وتذهب وحشته ، فينفح بما يحتاج التجارة إليه من مال ، يبدأ به عمله ، فاذا لمح وجه الفشل ، أسرع فوضع أمره بين يدى طائفته ، فلا يكاد ذلك يتضح لهم ، حتى ينهالوا على بضاعته ابتياعاً ، إلى أن تروج سوقه ، وتبدو طلائع نجاحه ، فإن تجده مهما نقبت عنه ، ذلك البهرى الذى لم يقِ الله عليه نعمة السعة واليسار

وإذ كانت شؤون هذه الأمة الواحدة في حاجة إلى الراعى ، يصرفها ويسهر على تدبيرها ، فلا بد لها من قاض يفرق بالعدل بين أبنائها جميعاً فيرضيهم جميعاً ، وهذا القاضي هو داعى الدعاة في بمبى ، وهو نائبه في كل بلد اتخذها بعض هذه الطائفة منزلاً ، يخولونه أمرهم فيقضى بينهم بما شاء ، لا يرد له حكم ولا يراجع في أمر ؛ ملك لا يملك من أسباب السلطان إلا عدل القاضى ، فكيف يبرم عدله ولا ينال للمظلوم من ظالمه ، وإنما يحكم بالعدل ويأمر ضمير الظالم أن يجزى صاحبه وأن يردعه ، بل لعل المظلوم لا يشكو ، وإنما ظالمهم هو الذى يشكو أن ضميره يخزه ويشتد عليه مذ ظلم ، فيادعى القوم اكفني عذاب الضمير فانه ليوشك أن يكون كالموت لا يُستعتبُ . . . هـذا قاض أمره عجيب ، وقضاؤه أعجب ، أتراه يقضى على شرعة مدونة ؟ أتراه يستلهم قانوناً بمينه ماله عنه من محيد ؟ كلا ، وإنما يستلهم قوة روحه ، وقد استُمِدت من معالم الشيعة وأعلام كتبهم

يعدل الداعى بقوة الروح ، ومن مظاهرها أنهـا تسترقُّ الناس حولها ، مرتقبين لا مرتهبين ، بدافع الحب ، ومظهرُ الحب الخضوعُ ، يسمو حتى يصير تفانياً . تتجه القلوب إلى الداعى ، لأنه عظيم من عظمة الله عظمته ؛ ثم تتعلق القلوب به ، لأنه مقدس من قدسية الله قدسيته ، ثم تتقبل ظلمه قبول الرضا ، لأنه ولى المالك المتصرف — فى رأيها — فاذا عدل ، تفانت فيه ، فاذا أحب فنيت في روحه ، وذاك داعى الدعاة عند طائفة البهرا هو فرد ولكنه الجماعة كلها ، وهم جماعة ولكنهم فرد واحد يقل ويقل حتى تتسع له سويداء قلب واحد كبير ، هو قلب هـذا الرجل ، يحدب عليهم وما يحدب إلا على نفسه ، ويحدبون عليه فهم على أنفسهم يحدبون . ولقد علمت أن الحب شريعتهم ، فاعلم أن أول أحكام هذه الشريعة أن ما يحوزه كل بهرى هو للشيخ قبل أن يكون لصاحبه ، يتصرف فيه متى شاء أينما شاء كيفما شاء ، وما جار . أليس رب الدعوة إلى التعاون والتساند والتعاضد وهى التى أثمرت كل ما أوتيت الطائفة من مال أو أكثره ؟ نعم فلكم أغنت هذه المبادئ عائلاً ، وأعزت يتيماً ، وروّت صادياً ؛ وهل يكون ساقى البذرة إلا رب ثمارها . . . وفيم ينفق الأمين العادل المحب ماله إلا على الأمانة والعدل والحب ؟ إنه ليأخذها صاعاً فيردها بأمانته وعدله وحبه عشرة

على أن الشيخ لا يَهْنِئُه طعامُه إلا إذا كان من كد يمينه ؛ ولهذا يشتغل بالتجارة ، ولأمر آخر هو القدوة ، ويربى تجارته كأى من أبناء طائفته ، ولا ينسى حادث ذلك الشيخ الذى عاش في المدينة على عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فكان لا ينقطع عن العبادة في ليله أو نهاره ، إلا ريثما يتأهب لرجع ما انقطع ، وإنه لراقد بالدراء لا يحمل لدنياه هماً ، وإن حمل لآخرته هموماً ، يخف الناس إلى تزويده بالطعام سراعاً وهم يغبطونه على تزوده للآخرة ، حتى مر النبى به في بعض غدواته ، فدنا ممن أحاطوا به ، وسألهم ما خطبهم حتى تكأكأوا على هذا الشيخ ، قالوا : رجل صالح يا رسول الله ، نهاره وليله صيام وقيام ، فعجب النبى عليه الصلاة والسلام ! وأسرع يسأل ، ومن يقوم بطعامه ؟. من يقوم بطعامه ؟! ورسول الله يسأل ؟ فيا فخرنا عند رسول الله إن كنا نطعم الشيخ الصالح ، ويا حظنا من رضا رسول الله إن علم أننا نؤثره على أنفسنا بالطعام . . . لم يكد النبى يسأل ، ومن يقوم بطعامه ؟ حتى تسابقت أصوات كثيرة تقول ، ترجو ثواب الله . . . كلنا نطعمه يارسول الله ، وأحاطت أبصارهم بوجه النبى ترصد ابتسامة الرضـــا ، فاذا بالوجه المشرق الكريم يعبس ، ويضطرب ، ثم تجتمع في غضبته حكمة الأبد من قوله : (كلكم خير منه) . داعى الدعاة الشيخ السن لا ينسى هذا الحديث ، وإن قومه ليقدسونه ، وتطيب نفوسهم له بكل ما يملكون ، ويبلغ من تقديسهم شخصه أن يستكبروا على الأرض أن تمسها قدماه ، فيحملونه إذا أراد الانتقال من حجرة من قصره إلى

أخرى، وهو على رغم ذلك كله حريص على أن يغدو إلى متجره كل يوم، فيقضى بعض نهاره عاملاً لدنيـاه، كأنه على شيخوخته وضعفه، يعيش أبداً

إن الدين لله، فما يحفظ رجل الدين عليه حرمته، إذا وزن الدعوة إليه بالدرهم والدينار، إنما يسمو رجل الدين، وتخلص روحه، وتصقل نفسه فلا تمسها شائبة من أكدار الدنيا، إن يلتمس على جهده مثوبة الله وحده، مزدرياً للوظيفة تجرى عليه فتذكره كلما أوشك أن ينسى، بأن دعوته رهن بوظيفته، ووظيفته رهن بدعوته . . . . فهل نوجب على رجل الدين أن يكون زاهداً؟ كلا بل نريده مع ذلك مكفول الرزق موفوره، بادى النعمة واليسار، عالى الكف يعطى ويتعفف أن يأخذ، وكيف السبيل؟

سبيل واحد يسلكه داعى الدعاة البهرى، وعماله فى مختلف البلاد، وقد سلكه من قبله أشرف البشر وسيد سادتهم محمد عليه الصلاة والسلام، إذ كان تاجراً؛ وفى التجارة وهى أم (المعاملات)، ألوان من الخير والأمانة والصدق والاستقامة والقناعة والدأب، ومن كل فضيلة فى الأرض، وهى التى توجت (بالأمين) اسم محمد، و(بالصادق) أمانة محمد، فكانا شافعيه لدى الله فى اختياره، ولدى الخلق فى دعوته

وفى هامش هذا الحديث فلنذكر، أن داعى دعاة البهرا، أراد فى العام الماضى، وكنت حينئذ فى بمبى، أن يحج إلى كربلاء موطن قبر الحسين، ومفيض نفسه ودمه، وإذا سار الشيخ كانت الطائفة كلها تسير، فلا بد من مظاهر العظمة ومطالع الجلال، وأسباب التحدث بنعمة الله، وفى سبيل ذلك اكترى الشيخ باخرة من عظام البواخر، عبرت به إلى البصرة فى ستمائة بهرى، وما فتئ مذ وطئت قدماه أرض العراق يمجد الناس من عطاياه، بأكرم ما يتسع له كرم، وأكمل ما يفيض به جاه.. فمن أين؟ من تجارة الشيخ وكد يمينه

* * *

فلينته هذا الحديث الذى لا يفرغ منه، بأمرين، أولهما أن التعاون والمحبة هما روح الجماعة الصالحة المفلحة، وعلى قدر القلة فى عدد الجماعة تكون قوة هذه الروح، فكأن أجدادنا لم يخطئوا حين اتخذوا نظام القبيلة، وكأننا أحفادهم، لم نتقدم خطوة واحدة حين خلفنا نظامها

وثانيهما أن التجارة أشرف حرفة وأعف حرفة، وأكفل حرفة بالنعمة واليسار، وأيسر حرفة مع الفضيلة، فاذا أعينا رجل الدين، وإنه لأعظم الناس خطراً أن يعول عليها، ويلتمس شرفها، فأخلق بكل رجل أن يحملها أمنيته من الغنى: غنى النفس وفى أعقابه غنى المال؟

القاهرة — محمد نزيه

النهضة التركية الأخيرة

والموسيقى الشرقية

بقلم عبد الحميد رفعت شيحه

قرأت بشغف عظيم ما خطه يراع الأستاذ القدير الدكتور عبد الوهاب عزام عن «النهضة التركية الأخيرة» وما تناوله من بحث ونقد أبرز الاصلاحات الكمالية بقلم نزيه مخلص يظهر منه بجلاء الأسف الشديد الذى يشاركه فيه كل شرقى يعتز بشرقيته على ما قام به الترك من قطع كل ما يصلهم بالشرق، وتجنبهم كل ما يدنيهم منه كما يتجنب السليم الأجرب..! معتقدين أنهم بذلك يضمنون عطف الغرب عليهم، فى حين أنهم لن ينالوا إلا سخرية تلك الأمم التى تقدس الشخصية والجنس

ولما لم يشر حضرة الأستاذ الدكتور إلى حملة الكماليين على الموسيقى الشرقية رأيت أن أتناول هذه الناحية بهذه الكلمة:

للموسيقى الشرقية تاريخ مجيد لم يبق خافياً على أحد. إلا أنه من الإنصاف أن نعترف بفضل الأتراك وخدمتهم لها. فاننا لم نعد نقرأ فقط ما استحدثوه من علوم وفنون فيها، ومن اشتهر بينهم من أعلام الموسيقى، بل حفظوا لنا ثمارهم الفنية بتدوينهم لها بعد استعمالهم «النوتة الغربية»

وهم وإن كانوا إلى وقت قريب يستعملون التدوين للموسيقى على أخطاء كثيرة، إلا أنهم على كل حال قد صانوا ثروة فنية عظيمة يحق لنا أن نفخر بها أمام الموسيقى الغربية

هذب الأتراك الموسيقى الشرقية وأحدثوا بها فنوناً لم يكن للشرق عهد بها، وتبحروا فى علم الأنغام ووضعوا لكل نغم شروطاً دقيقة تميزه وتظهر شخصيته بجلاء، ولهم فى هـذا

الميدان جولات موفقة ، حتى أنهم استنبطوا كثيراً من الأنغام الشائعة بيننا ، ووجهوا عنايتهم كذلك إلى علم الايقـاع ، ووضعوا لأوزانه طريقة حديثـة تدون بها ، كما أن لهم فضلاً لا يستهان به فى ابتكار جملة ضروب زادت من جمال الموسيقى الشرقية . هذا الى اهتمامهم بضبط مسافات السلم للموسيقى الشرقى وعدم تركهم كبيرة ولا صغيرة فى الموسيقى النظرية أو العملية إلا تناولوها بحثاً وتمحيصاً

إنه حق وفضل لا ينبغى إنكارهما . . وقد كنا إلى عهد قريب نعترف لخورين بزعامة تركيا للموسيقى الشرقية

فلما قامت « النهضة التركية الأخيرة » تهللنا بشراً وقلنا لا بد أن القوم لن يقنعوا بما وصلت اليه موسيقاهم من تقدم ونجاح ، وسيدأبون على البلوغ بها إلى أوج المجد والعظمة . . ولكن أحلامنا اللذيذة لم تلبث طويلاً عند ما فوجئنا بقرارات الكماليين القاسية التى منها : استعمال الحروف اللاتينية بدل العربية ، وهجر ألفاظ لغة الضاد ، والترحيب بالمصطلحات اللاتينية و... وأخيراً .. عدم استعمال الأرباع الشرقية ، وإلغاء الموسيقى التركية وإحلال الغربية محلها . . !

نزلت علينا تلك القرارات نزول الصاعقة وهدمت ما كنا نبنيه من آمال . . وظهر لنا ما يضمره الكماليون من إسراف فى هجر الشرق والشرقيين ، ومن رغبـــة فى الفناء فى الغرب والغربيين . . !

تتأثر موسيقى كل أمة ـ كما يتأثر أى فن ـ بعوامل شتى : منها الجو والأخلاق والعادات وغير ذلك . فليس من السهل أن نبدل بقرار ذوق أمة فى غمضة عين ، لأنها لم تكتسب هذا الذوق إلا بمرور الزمن وبفعل مؤثرات البيئة التى تعيش فيها . فقرار التركى الأب « أتاتورك » إلغاء الموسـيقى التركية لا محالة خاطئ لأنه يجبر الأتراك على موسيقى لم يتذوقوها ولن يتأثروا بها مطلقاً . . فاذا سمع التركى مثلاً قطعة حماسـية غربية فلن تهز مشاعره بقـدر ما تفعل فيهـا قطعـة تركية ، لأن الأولى لم تصـل إلى طريقة استفزاز شعور التركى ، ولم تصدق فى التعبير عن نفسيته ، بعكس الثانية ؛ وإذا كان الألمانى مثلاً لا يتأثر بموسيقى الفرنسى أو الروسى كما تؤثر فيه موسيقاه ، فكيف بالتركى ، والفرق شاسع جداً بين تقارب أمزجة هؤلاء وبعد هذا الأخير عنهم..!

كان الأجدر لو أريد قتـل الموسـيقى التركية أن تشجع الموسيقى الغربية ويشجع الاقتباس منها والتطعيم بها ؛ فعلى مر الزمان تزول تلك الموسيقى التى لا نصير لها ، بدل هذا التصرف الذى استعملت فيـه الطفرة . ولكن من يجرؤ منهم على إعلان هـذا الرأى يكون نصيبه شراً مما نال الأستاذ المدرس بالجامعة فى المؤتمر اللغوى ، وحسين جاهد ، وقد أشار اليهما حضرة الدكتور عزام فى إحدى مقالاته القيمة . . !

من هنا نلاحظ أن الديوان الموسـيقى الغربى مكون من أصوات كاملة وأنصافها ؛ بينما الديوان الشرقى يتكون من أصوات كاملة وأنصافها وأرباعها أيضاً .. ولكنهم مع ذلك آثروا الديوان الأول لأنه غربى قبل كل شيء . . !

فاذا كان الديوان الغربى موجوداً بتمامه ضمن الديوان الشرقى ، وبذا يتسنى عزف أية قطعة غربية على أية آلة موسيقية شرقية ، مع أنه فى كثير من الآلات الغربية لا يمكن عزف أغلب القطع الشرقية . . . وإذا كانت الأرباع الشرقية تتيح ثروة جديدة فى علم الأنغام زيادة على الثروة التى تحصل عليها من الأنصاف وحدها ، وبذا يتسع المجال أمام الملحن ويمكنه أن يعبر بلحنه عما يشاء . . . . فهل من الحكمة أن نلجأ إلى الديوان الناقص ونترك الديوان الكامل . . . ؟

إن كل مزايا الديوان الغربى موجودة فى ديواننا الشرقى ، وفوق ذلك فان لديواننا مزايا أخرى عندما نستعمل الأرباع الصوتية ، فلا شك حينئذ فى أن قرار الحكومة التركية إلغاء الأرباع الشرقية فى الموسيقى لم يكن لعيب فى هذه الأرباع بل إتماماً للخطة التى رسموها من البعد عن كل ما هو شرقى أو يمت للشرق بصلة . .

الآن . . وقد ظهر للملأ تصرف الحكومة الكمالية وتنصلها من كل ما يقربها من الشرق سواء كان ذلك فى الدين أو العلم أو اللغة أو الفن أو الأخلاق والتقاليد ، فليس من الخير أن يقتصر موقفنا على مراقبة أعمال هذه الحكومة وعلى مناشدة الكتاب والمفكرين أن يتعاونوا فى هـذه السبيل « حتى يجلوا عن الأمة هذه الغمة ، ويدفعوا عنها هذه الفتن المدلهمة ، والشبه المضلة ، ثم يسيروا بهـا على المحجة البيضـاء إلى الغاية المجيدة » كما يتمنى الأستاذ الفاضل الدكتور عزام ، بل يجب أن نفكر تفكيراً جدياً فى نقل الفنون الشرقية من تركيا كى نحافظ عليها قبل أن تعفو ويطويها البلى

فالى مفكرى الشرق العربى أرسل هذه الصيحة راجياً أن

يولوها حقها من الاهتمام ، وأهيب بوزارة المعارف المصرية أن ترسل إلى تركية بعثة من طلبتنا النجباء كي يدرسوا فنون الموسيقى الشرقية الصميمة ، وينقلوا لنا كل ما تصل اليه أيديهم قبل أن تتلاشى هذه الفنون ويتم حلول الموسيقى الغربية محلها ، وذلك أسوة بالبعوث التي ترسلها إلى أوربا ؛ وهناك يتشبع الطلبة بالموسيقى الغربيـة ولا يكونون في المستقبل حرباً على الموسيقى الشرقية التي من العار أن تنهض على حساب الموسيقى الغربية أو تتلوث بدماء دخيلة فيتعكر صفاؤها . .

اسكندرية — عبد الحميد رفعت شمر

دراسات في الأدب الانكليزي

٣ ـ وليم وردزورث

William Wordsworth

بقلم جريس القسوس

أشعاره ونظريته في الأدب

ظهرت الطبعة الأولى من ديوانه Syrical Balleds سنة ١٧٩٨ كما بينا سابقاً ، أما الطبعة الثانية فقد نشرت سنة ١٨٠٠ حاوية مقدمته الشهيرة التي ضمنها نظريته في الأدب عامة وشعره خاصة دون خيفة أو تردد . ولكولردج في الطبعة الأولى من هـذه المجموعة ثلاث قصائد . غير أنه أضاف إليها قصيدتين أخريين ظهرتا في الطبعة الثانية . وهذه القصائد الخمس هي « الملاح القديم ، والعندليب ، و Foster-Mother tale ، و Dungeon ، والحب » .

وما كاد الأدباء والكتاب يطلعون على آراء وردزورث في مقدمة ديوانه ويقرأون أشعاره في ديوانه حتى تناولوه بأقلام نارية وألسنة حادة ، فسخروا ما شاء الله لهم أن يسخروا بآرائه وأشعاره . ولم يبق ديوانه في شكل واحـد بل ظهر في أوضاع شتى ، وكان الشكل الأخير الذي ظهر فيه سنة ١٨٤٥ جامعاً جزأين مع المقدمة ومذيلاً بملحق في (التعابير الشعرية) Poetic Dicton

أما النظرية التي أودعها المقدمة فتتلخص فيما يلي : —

« على الشاعر أن ينتزع موضوعاته من الحوادث العادية المألوفة ، وأن يعبر عنها بلغة سهلة واضحة ليفهمها « الراعي والعالم » على السواء . أي لا تكون خلواً من البلاغة ، ولا تهبط الى درجة الركاكة والفهاهة . وعليه أيضاً أن يلبس الحوادث كساء من الخيال الرائع لكي تظهر وهي عادية مألوفة غير عادية ولا مألوفة ، وأن يقف تجاه كل حادث موقف العالم المدقق المحقق ، الذي يحلل الأمور تحليلاً علمياً منطقياً ، فيبحث عن المسببات ويرجعها إلى أسبابها ، محكماً في كل حالة عقله في التحليل وعاطفته في التعبير . أما الشعر فهو الانبعاث الطبيعي للشعور القوي الزاخر ؛ وما الشاعر إلا إنسان يخاطب بشراً ، إنسان شـديد الاحساس والغيرة متضلع من درس الطبيعة البشرية ، تنكشف له نواح في الحياة ومظاهر في الطبيعة تحتجب عن غيره ، وهو يعبر عن موضوعه بلغته ليتغنى بها الجميع . بهذا يمتاز الشاعر من سائر البشر عموماً ومن علماء الطبيعة بعض الامتياز خصوصاً »

ولقد نحا وردزورث في انتخاب موضوعات أشعاره منحى إسحاق ملتن ووليم بلايك وروبرت برنز وقراي وغيرهم ، غير أنه لم يقتصر على أسلوب واحـد في النظم ، بل طرق معظم البحور والأوزان الشعرية التي سبقه إليها الشعراء قبله . أما سبكه اللفظي ففي غاية الدقة والبساطة ، وتراكيبه خالية من الألفاظ اللاتينية التي يكتظ بها شعر ملتن ، ومن فالكية بوب ، أو إبهامية براوننج الناجمة عن تطرفه في الايجاز . ويندر أن تجد في شعره رجوعاً إلى الأساطير الأولى أو اقتباساً من الأدب (الأصولي) الكلاسيكي أو تقليداً له ، ولقد أكثر من دراسة الشعراء الذين سبقوه وخصوصاً شكسبير ، وملتن وجوسر وسبنسر وكوبر وقراي وتشبع بآرائهم وأساليبهم فنسج على منوالهم في بدء حياته ، غير أنه عاد فابتدع له أداة للتعبير خاصة به . أما ميزات شعره فتتلخص فيما يلي :

بساطة الأسلوب وسهولة التعبير ، ووضوح المعنى في أغلب الأحيان

انتزاعه موضوعات أشعاره من الطبيعة والحوادث اليومية والأشياء العادية المألوفة . وقد ورد ذكر هاتين الميزتين في الكلام على مقدمة ديوانه

تصوفه :

وهـذه إحدى خصائص الحركة الإبتداعية التى كان يمثلها شاعرنا فى بلاد الانـكليز أصدق التمثيل . ووردزورث يرى أن الله روح تقطن فى جميع مظاهر الـكون أو الطبيعة الخارجية من هواء وجبال ورياح وصخور حتى الرعاة والحيوانات . وتظهر لنا هذه الفلسفة جلية فى قصيدته Tintern Abbey ، وتعرف عند أهل اللاهوت والصوفية « بشمول الألوهية » أو « وحدة الوجود » Pantheism ، « أى أن الله إنما هو القوى والنواميس الطبيعية وأنه حال فى كل شىء وليس مستقلاً » . على أنه لم يتمسك بهذه العقيدة تمسكاً دينياً ذمياً كما يظن بعضهم ، بل اتخذها عقيـدة شعرية وقتية دفعته عاطفتـه وروحه الشعرية إلى إيرادها فى سياق الـكلام

ولعه بالطفولة والأطفال :

وهذا ظاهر فى معظم قصائده مثل « نحن سـبعة » ، وفى القصائد التى ورد فيها ذكر الطفلة « لوسى » . وتتجلى هـذه الخاصية بوضوح فى قصيدته « خواطر فى الخلود من ذكريات الطفولة » ؛ ففيها يرى أن الانسان أقرب ما يكون إلى الله وإلى السماء فى أوانـ الطفولة . وهو يؤمن بسابق وجود الانسان وأزليته (Preexistance) ، أى ان الانسان كان أصلاً فى السماء فهجرتها روحه وظهرت فى جسد بشرى على الأرض . فالانسان فى عهد الطفولة يكون بحكم الطبع قريباً جداً من الزمن الذى قضته روحه فى السماء ، لهذا يفضل عهدُ الطفولة عهدى الـكهولة والشيخوخة . إلا أنه يحسن بنا أن نرفق بالشاعر فلا نُجرى عليه الأحكام الجارفة فى كل ما نعزوه إليه من العقائد . فهو — كما بيّنا سابقاً — لم يكن متعصباً لرأى أو لعقيدة واحـدة منظمة شأن كبار الفلاسفة أو اللاهوتيين وإنما كان شاعراً يكتب عن عاطفة شـديدة ، فهو لا يستقر على رأى من الآراء ما دامت العاطفة لا العقل هى الدافع والمحرك له فى أغلب منظوماته

الخيال الرائع

يمتاز وردزورث بإلباسه الأشـياء الطبيعية المألوفة كساءً من الخيال الراقى ، وعنده أنه كلما ازداد الشاعر توسماً وانطلاقاً فى عالم الخيال ازداد لذة واستمتاعاً فى الحياة . ويختلف عن كولردج باتخاذه عاديات الأشياء ، ومألوفها مواضيع تصوره وخياله متوخياً أن يبتدع مما هو عادىّ ومألوف شيئاً جديداً مبتكراً . فبينا كولردج يتدرج من عالم الروح والخيال إلى عالم المادة والحقيقة ترى وردزورث يشرع من عالم المادة وينتهى عنـد التصاوير الشائقة والأخيلة الرائعة

غموض معانيه

وهذه الميزة لا تلازم معظم أشعاره وإنما تصدق على البعض منها . وغموضه ناجم عن عجزه فى بعض الأحيان عن التمييز بين ما هو عادى مألوف وما يظنه غريباً نادراً ؛ هذا عدا جنوحه إلى إلباس الأشياء العادية حلّة من رائع الخيال مما يوقع القارئ فى ارتباك شديد يجعله غير قادر على إدراك المعنى الصحيح وتفهم ما يتوخى الشاعر إفهامه .

وعدا هذا يمتاز وردزورث بوصفـه الحيوانات والطيور الأهلية منها والبرية . ويؤخذ عليه ندور ورود النكتة فى أشعاره ، وأن أشعاره لا تلهب الحماسة فى نفس القارئ

ولـكى يتم لنا البحث فى أشعاره لا بدّ لنا من أن نقول كلمة فى قصيدتين كبيرتين من قصائده ألا وهما الفاتحة The Prelude والنزهة The Exeursion . أما « الفاتحة » فهى ترجمة وافية لحياة وردزورث الشعرية ، ففيها يبحث عن تطور نفسه الشعرى ونمو سليقته منذ عهد الطفولة . فى هذه القصيدة ملتقى حاضره وماضيه ، وفى هذا الملتقى مبعث لشعوره .. إذ أنه كلما ذكر أيام الصبي اللذيذة اختلجت فى نفسه عاطفة قوية وتملـكه شعور لذيذ لا يمالك من بعثه شعراً حياً لا أثر للكلفة فيه . وللذاكرة المقام الأول والفضل الأكبر فى تصويره أحلام الطفولة وأيام الصبي ، إذ لولاها لنضب معين شعوره وانحبس لسانه عن التعبير عما يجيش فى صدره من مشاعر وفى نفسه من خلجات ، ووقف قلمه عن وصف الأويقات اللذيذة الهنيئة التى قضاها تحت كنف أمه الرؤوم : الطبيعة بأبسط معانيها وأجلى مظاهرها . وهـذه القصيدة مهداة إلى صديقه الشاعر كولردج ، وتقع فى عدة أبواب يختص الأول منها بحياة الطفولة ، والثانى بحياة المدرسة ، والثالث بالسنين التى صرفها فى كمبردج ، والرابع فى حياة لندرة ومؤثراتها ، والخامس زيارته الأولى لفرنسا والألب وإقامته فى فرنسا خلال الثورة الفرنسية ،

غير ذاكر شيئاً من علاقته بأنيت فالون معشوقته للمهودة

أما « النزهة » ففيها يحلق الشاعر ويسمو في عالم الروحيات إذ هي مجلى تأملاته في الفلسفة والاجتماع وعلم النفس والصوفية ، وفيها يطرق شتى الموضوعات العلمية البحتة ، كتركيب العقل ونشوئه ، وفلسفة العواطف ، والتأمل ؛ غير أنه يكسوها حلة من الخيال ، ويصوغها بأبسط التراكيب وأسلس العبارات وأوضحها ، هذا إذا ضربنا صفحاً عن جنوحه في بعض الأحيان إلى الغموض في المعنى . « والنزهة » تقع في تسعة أجزاء مقتضبة ، كل فصل منها حاو لقسم من أقسام القصة التي يسردها ويجعلها هيكل هذه القصيدة الكبرى

وهو في جميع مباحثه هذه لا يتوخى غير الصدق واظهار عظمة الخالق . أما مدار بحثه في هذه المواضيع فنفسه ، لا لأنه صنع من جبلة غير التي صنع منها سائر البشر ، بل لأنه أكثر علماً بنفسه من غيرها من النفوس

ولقد أثارت نظريته هذه وأشعاره جدلاً عنيفا وبحثاً متواصلاً في البيئات الأدبية ، فمن الأدباء من حمل عليه وطعن فيه ، ومنهم من انتصر له . ومن الذين انتقدوه فرنسيس جفري وبيرون وهزلت ، ومنهم أيضاً صديقه كولردج في فصل من كتابه (تراجم أدبية) ، بيد أنه لم يكن هدّاماً في نقده ولا شديد التحامل عليه في تعليقه على آرائه كغيره من النقّاد . أما إمرسن الكاتب الأمريكي الشهير فينتصر له ، ويعدّ قصيدته « خواطر في الخلود من ذكريات الطفولة » التي تمثل عقيدة شاعرنا الفلسفية ونظريته الأدبية بعض التمثيل ، من أروع بل أروع ما خلّفه لنا أدباء القرن التاسع عشر من القصائد . ولقد كان ديوان وردزورث معواناً للفيلسوف الانكليزي الشهير جون ستوارت مِلْ على تخلصه في ربيع حياته من السوداء التي كانت تلازمه من حين إلى آخر ، إذ وجد في قراءة القصائد الفلسفية والدينية منها راحة وعزاء بل خير شفاء له من دائه النفساني

ومؤرخو الأدب الانكليزي يجعلون السنة التي ظهر فيها ديوان وردزورث لأول مرة ، أي سنة ١٧٩٨ ، فاتحة العصر الابتداعي ، لأن أشعاره تمثل الحركة الابتداعية من الناحية الأدبية خير تمثيل . ولكي يتضح لنا معنى هذا القول علينا أن ننظر بعض النظر في خواص هذه الحركة ، وخصوصاً الناحية الأدبية منها

(البقية في العدد القادم)

عيسى القورى

في اللغة والأدب

المثنيــــات

للأستاذ محمد شفيق

إن من خصائص اللغة العربية التي امتازت بها على غيرها من اللغات الحية هذه المثنيات[١] . وقلما يخلو علم من علوم لغة الضاد من مثنيات إن قليلة أو كثيرة . وقد رأيت أن أقدم إلى قراء « الرسالة الغراء » أمثلة منها مرتبة على العلوم ، مبتدئاً بالأدب واللغة لشدة علاقتهما بالرسالة ، وإن كانت هي حفية بالثقافات الاسلامية والعربية وغيرها :

المثنيات في اللغة والأدب والنحو والعروض

(الابردان) الغداة والعشيّ ، والظل والفيء ، وفي الصحاح : الابردان : العصران . (الأبيضان) اللبن والماء ، أو الشحم واللبن ، أو الشحم والبياض ، أو الخبز والماء ، أو الحنطة والماء ، أو اللحم والخبز ، قال الشاعر :

ولكنه يأتي إلى الحول كاملاً وماليَ إلا الأبيضين شرابُ

(الأجدّان) الليل والنهار ، وكذلك الجديدان ، والدائبان والطريدان ، والعصران ، والملوان ، والأحدثان ، والأصرمان .

(الأحمران) الخمر واللحم ، وفي المثل « أفسدَ الناسَ الأحمران » قال الشاعر :

(١) وقسموا المثنى إلى نوعين : المثنى الحقيقي وهو مشهور ، والمثنى التغلبي وهو تغليب احد المتجاورين والمتشابهين على الآخر فيجعل الآخر مسمى باسمه ثم يثنى ذلك الاسم قصداً إليهما جميعا ، والتغليب يكون تارة للشرف وأحياناً للشهرة وآونة للخفة كالعمرين لأبي بكر وعمر ، والقمرين للشمس والقمر . قال الزجاجي ... قال المفضل الضبي ... وجه إلى الرشيد فخرجت حتى صرت إليه ... فقال يا مفضل عندك مسألة تسأل عنها ، قلت نعم يا أمير المؤمنين قول الفرزدق :

أخذنا بآفاق السماء عليكم لنا قمراها والنجوم الطوالع

قال قد أفادنا هذا قبلك هذا الشيخ – يعني الكسائي وكان في المجلس – لنا قمراها يعني الشمس والقمر كما قالوا سنة العمرين يريدون أبا بكر وعمر ، قلت ثم زيادة يا أمير المؤمنين ، قال زد قلت : فلم استحسنوا هذا ؟ قال لأنه إذا اجتمع اسمان من جنس واحد وكان أحدهما أخف على الأفواه غلبوه ... قال قلت قد بقيت مسألة أخرى ، فالتفت إلى الكسائي وقال : أفي هذا غير ما قلت ؟ قلت : بقيت الغاية التي أجراها الشاعر المفتخر في قوله ، قال : وما هي ؟ قلت : أراد بالشمس ابراهيم خليل الرحمن ، وبالقمر محمداً صلى الله عليه وسلم ، وبالنجوم الخلفاء الراشدين ؛ فسر وأمر له بجائزة عظيمة .

إن الأخامرة الثلاثةَ أهلكتْ ... مالى وكنتُ بهنَّ قدماً مولعا
الرّاح واللحم السمين وأطّلى ... بالزعفران فلا أزال مُولَعا

(الأخضران) النباتان القريب والبعيد ، لأنّ القريبَ أخضر حقيقةً ، والبعيد كما قالوا أسود ؛ والأسودُ عند العرب أخضر ، يقال فلانٌ أحرق الأخضرين : يراد المبالغة فى ظلمه وتعديه ، كأنه يوصلُ الشرَّ إلى القريب والبعيد . وقيل الأخضران : النبات والانسان من العرب ؛ قال الفضل بن العباس :

وأنا الأخضرُ من يَعرفني ... أخضر الجلدةِ من نسل العربْ

(الأصرمان) الذئب والغراب لأنهما انصرما عن الناس ، أى انقطعا ، قال :

وموماة يحارُ الطرفُ فيها ... إذا امتنعتْ علاها الأصرمان

(الأعميان) السيل والفحل ، والسيل والحريق ، والسيل والليل ، والسيل والجمل الهائج : لأنها لا تتقى موضعاً ولا تتجنب شيئاً كالأعمى الذى لا يدرى أين يسلك فهو يمشى حيث ذهبت رجله

(البازيان) الأعشى وجرير . كان أبو عمرو بن العلاء يقول : الأعشى وجرير بازيان يصيدان ما بين العندليب إلى الكركى

(البردان) الغداة والعشى ، قال ابن خالويه : حدثنا ابن دريد عن أبى حاتم عن الأصمعى قال : دعا أعرابىٌّ لرجلٍ فقال : أذاقك الله البردين — يعنى بردَ الغنى وبرد العافية — وأماط عنك الأمرّين ، يعنى مرارة الفقر ومرارة العرى ، ووقاك شر الأجوفين ، يعنى فرجه وبطنه

(الحكيمان) أبو تمام والمتنبى : سئل أبو العلاء عنهما وعن البحترى فقال : هما حكيمان والشاعر البحترى ، كأنه يريد أنهما ينتزعان المعانى من كلام الحكماء ويراعيان الصناعات الشعرية التى أحدثها المتأخرون ، وأما البحترى فانه يجرى على عادة العرب فى ترك التكلف واختراع المعانى

(الخالدان) هما خالد بن نضلة بن الأشتر بن جحوان ، وخالد بن قيس بن المضلل بن مالك ، قال الشاعر :

فقبليَ ماتَ الخالدانِ كلاهما ... عميدُ بنى جحوان وابنُ المضللِ

(الخالديّان) هما أبو بكر وأبو عثمان ابنا هاشم الشاعران المشهوران ، قال الصابى :

أرى الشاعرين الخالديين نشّرا ... قصائدَ يَفنَى الدهرُ وهى تقيدُ
تنازعَ قومٌ فيهما وتناقضوا ... ومَرّ جدالٌ بينهم وتردّدُ
فطائفةٌ قالت سعيدٌ مُقدمٌ ... وطائفةٌ قالت لهم بل محمدُ
وصارالىّ حكمى فأصلحتُ بينهم ... وما قلتُ إلا بالتى هى أرشدُ
هما لاجتماع الفضل روحٌ مؤلف ... ومعناهما من حيثُ ألفيتَ مفردُ
كما فرقدا الظلماء لما تشاكلا ... علاءً أشكل ذاك أم ذاك أمجدُ
فزوجهما ما مثله فى اتفاقه ... وفردهما بين الكواكب أوحدُ
فقاموا على صلح وقام جميعهم ... رضياً وساوى فرقدَ الأرض فرقدُ

(السّببان) هما عند علماء العروض خفيف ، وهو حرفان ثانيهما ساكن ، وثقيل وهو حرفان متحركان

(الصادان) هما الصاحب بن عباد والصابى ، قال أبو الحسن البندارى : أكتب أهل العصر الصادان

(الجرادتان) هما قينتا معاوية بن بكر أحد العماليق واسمهما بعاد وثماد ، وبهما ضرب المثل « ألحن من الجرادتين »[1]

(الصناعتان) هما عند الأدباء صناعة الشعر وصناعة النثر ، وللبلغاء فيهما مؤلفات كثيرة ، وأما الصنعتان فى قول الوراق يرثى أبا الحسين الجزار :

يا عيدنا الأضحى سقى ... صوبُ الغمام أبا الحسينِ
لو عاشَ فيك لقد غدا ... يشكو بوارَ الصنعتينِ

فالمراد بهما صنعة الجزارة لعدم من يتقدم إلى الله بالاضاحى ، وصنعة الشعر لعدم الكرماء

(الفاصلتان) هما عند العروضيين صغرى ، وهى ثلاثة أحرف متحركات على التوالى يعقبهن ساكن ، وكبرى ، وهى ما تجمع أربعة أحرف متحركة على التوالى يعقبهن ساكن

(رهين المحبسين) هو أبو العلاء المعرى ، سمى نفسه بذلك وكان لزم بيته فلم يخرج منه مطلقاً ، فأراد بأحد المحبسين البيت وبالآخر العمى

(ملكا الشعراء) هما امرؤ القيس وأبو فراس الحمدانى ، قال الصاحب بن عباد : بدئ الشعر بملك وختم بملك ، يعنى امرأ القيس وأبا فراس

(فعلا المدح والذم) و (جمعا التصحيح) و (اجتماع الساكنين على حدة) و (اجتماع الساكنين على غير حدة) عند النحويين مشهورة[2]

محمد شفيق

(١) تفصيل خبرهما عند المحبى فى « جنى الجنتين » فى صفحة كبيرة
(٢) وقد أسهب المحبى فى الكلام عليهما بما لا يوجد بعضه فى كثير من كتب النحو

صور من التاريخ الإسلامي :

عبد الله بن الزبير

(١ – ٧٣ هـ)

بقلم محمد حسني عبد الرحمن

كان القرن الهجري الأول عامراً بالأبطال الذين ترتكز بطولتُهم على العقيدة، وتقوم شخصياتُهم على العزائم الثابتة، والمبادئ الواضحة القوية. ولو أن مؤرخاً إسلامياً أراد أن يسجل صفحة ثبتاً بأسماء النابغين من رجالات قريش، في الصدر الأول من الدولة الأموية، لكان خليقاً به أن يضع في طليعتهم بطلاً فذاً، كان لا ينفك شوكاً في جنب هذه الدولة، لسمو نفسه، وطمعه في الخلافة، وعمله لتحقيق غرضه؛ حتى كاد ينتزع اللقمة لنفسه من فم تلك الدولة الفتية؛ كان يطمع في النجم، وكان يؤيد مطامعَه عزمٌ قويٌ، وبأس شديد، ولسان ذربٌ، وشرف واضح، وهمةٌ قعساء، تَعضدُها الشهامةُ والبطولة، ولقد تمت له بكل هـذا أدواتُ الرجولة. ذلك هو عبد الله بن الزبير الأسدي القرشيّ.

أنجبه أبوان كريمان؛ أما أحدُهما فالزبير بن العوام بن خويلد من بني أسد بن عبد العُزى، حواريّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته صفية؛ ولم يكن الزبير مغموراً ولا وسطاً في الناس، وإنما كان رجلاً من الطراز الأول، ومن ذوي المقامات الممتازة الذين تقوم الدول على أكتافهم، ولا يُبَتّ في أمرٍ هام إلا بعد مشورتهم وبذل نُصحهم؛ ولقد كانت له اليد الطولى في نجدة الإسلام أيام كان المسلمون قِلّة، كما كانت له مواقف مشهودة وآراء سديدة، في فتح البلدان، ونشر الإسلام؛ أرسله أميرُ المؤمنين عمر إلى مصرَ نجدة لابن العاص وهو يحاول فتحَها، وقال له: إني أرسلت اليك رجلاً بألف! ولقد برهن الزبير بسداد رأيه، وبجيد أعماله أنه أهلٌ لهذا التقدير العظيم. وفي الحق أن الزبير كان يُعدّ في الصف الأول بين أمجاد قريش، وذوي الثروة فيها، وقد رشّحه مركزُه ونباهةُ شأنه، وقوة شخصيته للخلافة؛ فكان أحد السّتّة الذين عَهد اليهم ابن الخطاب، أن يختاروا خليفةً منهم بعد وفاته للمسلمين

هذا هو الزبير أبوه؛ أما أمه فحسبُ القارئ أن يعرف أنها أسماء بنت أبي بكر الصديق، وأخت عائشة أم المؤمنين، وكانت مع شرف أرومتها، ذات حزم وفِكرٍ ثاقب، كما كانت صُلْبة العود، أبيّةَ النفس، لها عزمٌ جبّار؛ فلو أنها لم تكن أنثى، لكانت رجلاً ولا كالرجال!!!

من هذه الأنساب الواضحة، والدوحة الباسقة، خرج عبد الله وورّثه آباؤه وأقرباؤه جُل الصفات الممتازة التي تَغذى الطموحَ وتُذكيه؛ وساعدت بيئتُه التي نشأ فيها على تنمية خلال البطولة والاقدام في نفسه، فامتاز بالفصاحة، وذلاقة اللسان، وقوة الحجة، حتى كان يعد من خير خطباء الاسلام؛ واشتهر كذلك فضله وزهده، وطولُ صيامه وقيامه، بين الخاصة والكافّة. أما شجاعتُه فحدّثْ عن الليث ولا حرج! فهو الذي يقول: « ما أبالي — إذا وجدت ثلثمائة من الرجال، يصبرون صبري — لو أجلب بهم على أهل الأرض!! » ويشهد له أبو عبيد بأكثر من هذا فيقول « إن عبدَ الله كان لا يُنازَع في ثلاث: شجاعة، وبلاغة، وعبادة » وتلك عدةُ الرجولة الكاملة، وخاصة في ذلك العصر

***

كان عبد الله أولَ مولود للمهاجرين بالمدينة عامَ الهجرة، فدرج بها، ونشأ فيها، حتى نال من التعليم المنتشر في عصره ما أكسبَه ثقافةً دينيةً عَطِرة، فعرف الكتابة والقراءة، على طريقة عصره، وحفظ الكتاب، وروى الأحاديث؛ واقتدى في حياته وعبادته بمن كان يخالطهم ويباشرهم من جلة الصحابة الكرام؛ فأثر هذا في أخلاقه تأثيراً كبيراً، كان من ثماره تلك النزعةُ، نزعةُ العبادة وطول القيام والتهجّد التي غلبت عليه فيما بعد. وكان أهم ما يجذب النظر اليه وهو صغير، جراءته النادرة، وميله إلى العناد، مع الثقة بنفسه، والاعتداد بقوّته؛ « كان ذات يوم يلعب مع الصبيان، فمرّ رجل فصاح بهم، ففروا ومشى عبد الله القهقرى (بظهره) ثم قال: يا صبيان اجعلوني أميركم، وشُدوا بنا عليه فهزَمه!! ». ومرَ به عمر بن الخطاب، وكان عبد الله مع صبيان يلعبون، ففروا وبقي هو؛ فقال له عمر: لماذا لم تفر مع رفاقك؟ فأجابه بجراءة وفصاحة: « لم أجرم فأخافك،

وليست الطريق ضيقة فأوسع لك » . هذه أمثلة صغيرة ، ولكننا نلمس فيها روحاً متحركة وثابة ، في زمن الطفولة والتنشئة ، ونستنبط منها أن العظمة بوادر تلوح في الحوادث الحقيرة ، كأنها ارهاصات لظواهر أخرى كبيرة ، تكون حينما تكون عظائم الأمور ، ومن هذه المُثُل وأشباهها نعرف أيضاً مدى اعتداده بنفسه ، وثقته بها ؛ ولا ريب أن الحبة الجيدة إذا صادفت أرضاً خصبة فانها تشق الأرض شقاً ، لتحيا على أنضر ما تكون النبتةُ الطيبةُ حياة وبهجة !

ولما بلغ أشده وأطاق حمل السلاح ، ثقف صناعة الحرب ، ثم صحب الجيوش الغازية ، وأبلى في العدوّ بلاء محمودَ الأثر ؛ روى الزبير بن بكّار « أنه ـ عبد الله ـ قتل بيده في فتح افريقية أميرَ جيوش الروم » فأرسله عبد الله بن أبي سرح (وكان قائد جيش المسلمين) بشيراً إلى أمير المؤمنين عثمان ، فلما سمع بشارته أعجبه كلامُه وشجاعةُ قلبه ، ثم سأله : أيمكنه أن يخطب الناس بمثل ما أخبره به ؟ فأجابه : وما يمنعني من ذلك ؟ ثم قام خطيباً ، وتدفقت من فيه آياتُ البلاغة ، وأطنب في وصف الفتوح ، وفصّل هزيمة العدو ، حتى أسر القلوب ، وأدهش السامعين ، بفرط بلاغته وقوة عبارته ، وتمكنه من ناصية القول والموقف ؛ فقام أبوه وقبله بين عينيه ، وانفضّ الجمع ، وليس فيهم إلا معجبٌ ببيانه ، مثنٍ على شجاعته

ولم أطلع في وصف عبد الله على عبارة وافية موجزة أبلغ من قول أبي عمرو بن عبيد : « كان عبد الله نهماً ذَكَراً ذا أَنَفَةٍ ، وكان له لَسَنٌ وفصاحة ، وكان كثير الصلاة والصوم والعبادة ، شديد البأس ، كريم الجدات والأمهات والخالات » . بهذا الوصف الكريم الجامع استأهل ابن الزبير أن يكون في الطبقة العالية بين رجال عصره ، وما فتيء عثمان يتفرس في مخايله قوة الشكيمة ، وفرط النبوغ ؛ ويرمقه بعين ملؤها الحبُّ والرضا ، حتى كان يوم الدار ، فاستخلفه عليها قبيل مصرعه ... ومن ثمّ دبّ الطمع إلى قلبه في طلب الخلافة لنفسه ، وأتى ذلك سراً مكتوماً ، ولكنه لم يألُ جهداً في تحقيق هذا الحلم الجميل ، الذي يلائم طبعه ويشبع رغباته الكامنة ؛ ولِمَ لا يكون خليفة وقد استخلفه أمير المؤمنين عثمان على داره التي هي دار الخلافة ؟ ولِمَ لا يكون خليفة وجدُّه أبو بكر أولُ الخلفاء ؟ بمثل هذا تحدث إلى نفسه ، ولكن أنَّى له هذا ، وفي القوم كثيرٌ ممن يكفُّونه بمجرد وجودهم عن ذلك المرتقى السامي ؟؟ وإذن فليرتقب سنوح الفرصة ، وليأخذ أهبته ريثما تواتيه الظروف المسعدة ، عسى أن ينال ما يبتغيه ! ؛ وقد قضت عليه سياسة الترقب هذه أن يناوئ كل خليفة يلي الأمر من بعد عثمان ، فما هو أن بويع عليٌّ بالخلافة حتى قام عبد الله يؤلب عليه أهلَ الحجاز بزعامة أبيه الزبير وطلحة بن عُبيد الله ، وتحت راية خالته عائشة ، وما كانت أم المؤمنين لتخرج من تلقاء نفسها لملاقاة عليّ بالعراق ، وإنما زجها عبد الله ودفع بها في هذا المأزق الحرج ، بعد أن بين لها فظاعة الجريمة التي ارتكبها الثائرون ضد عثمان ، وبعد أن هوّل ما بينها وبين علي من الأحن القديمة ، فاستجابت طبيعة المرأة لما أُلقي اليها من دواعي الاغراء ، وأجمعت أمرها على النزال ، فقامت تخطب المسلمين ، تحرضهم على الانتقام لعثمان . . . . حتى كان ما كان يوم الجمل . روى المسعودي « أن عائشة قالت يوماً : إذا مرّ ابن عمر فأرُونيه ، فلما مرّ قالوا هذا ابن عمر ؛ فقالت : يا أبا عبد الرحمن ، ما منعك أن تنهاني عن مسيري إلى العراق ؟ قال : رأيت رجلا قد غلب عليك ، ورأيتك لا تخالفينه !! (يعني عبد الله بن الزبير)

يؤخذ من هذا ومن قول الرواة أن عبد الله كان هو المحرك الخفيّ لجيش عائشة على علي ، وأنه كان قطبَ الرحا يوم الجمل ، والدافع له إلى هذا إنما هي نيتُه المستورة ، ورغبتُه المكبوتة في أمر الخلافة

***

ثم تجري الأمور على قدر ، ويتولى معاوية الأمر بعد مقتل علي ، فيتمنى عبد الله أن لو كان معه جند يشدّ أزره أمام الخليفة الجديد ! ولكن أنى له ذلك الآن ؛ وقد انقسم المسلمون فرقتين ، ظفرت سياسة إحداها بزعامة معاوية ، وخذلت الأخرى بمصرع ابن أبي طالب ، فلم يبق إلا الاذعان للواقع ، والحزم إذن في المداورة لمن يبغي أمراً جللاً كهذا ، ولابد حينئذ من المبايعة ، مع الترقب من جديد لفرصة أخرى أمثلَ من هذه

بايع ابنُ الزبير معاوية ، وفي نفسه غصة ، ولقد كانت المطامع الكبيرة التي ينطوي عليها توقفه من معاوية موقف الند للند ، بل موقف الشاكس الناقض ، حتى ليهم الخليفة أن يبطش به ، فلا يحجزه عن ذلك إلا مركز عبد الله من جهة ، وخشية الانقلاب والفتنة من جهة أخرى ،

يُروى أن معاوية حجّ سنة ، ثم رحل إلى الشام ليلاً ، فلم يعلم بسفره من غير خاصته إلا عبد الله ، فقفا أثره على فرس ومعاوية نائم في هودجه ، فانتبه على وقع الحافر ، وقال من صاحب الفرس ؟ قال أنا عبد الله ! لو شئت يامعاوية لقتلتك الآن !! (يمازحه بهذه الكلمة) قال معاوية لستَ هناك ، ثم دار بينهما حوار طويل ، وكان مما قال عبد الله : أفطنها يامعاوية ! أما إنا قد أعطيناك عهداً ، ونحن وافون لك به مادمت حياً ، ولكن ليعلمن مَن بعدك !!! وفي هذا التهديد ماينم عن ثورة عنيفة يتأجج بها صدر عبد الله ، وإنما كان يكتمها إلى أجل ؛ وكثيراً ما كان يضيق به معاوية فيغمز عليه عمرو بن العاص ليُحرجه ويستثير دفائنه ، فيقع بينهما في مجلس الخلافة الجدالُ الشديد ، والتفاخر بالآباء والأحساب ، ولكن ابن الزبير كان يُفحم عمراً بالقول الرادع ، والحجة الدامغة . قال له مرة : « يا ابنَ العاص . إنما طال بي إلى الذُّرى مالا يطول بك مثله : أنفٌ حمى ، وقلبٌ ذكى ، وصارم مشرفي ، في تليد فارع ، وطريف مانع » . فعبد الله — كما قلنا — يطوى نفسه على طلب الخلافة ، ويستسرّ الأمر ، ولم يكن هذا ليخفى على أحد ، حتى على الخليفة نفسه ؛ وتتضح نيته ، وتظهر مطامعه لمعاوية حينما يطلب منه أن يبايع لابنه يزيد . يروى الرواة أنه لما طلب منه ذلك أطرق مفكراً ، فقال معاوية مالي أراك مطرقاً إطراقَ الأفعوان في أصول الشجر ؟ قال : « أنا أناديك ولا أناجيك ؛ أخوك من صدَقك ، ففكِّرْ في الأمر قبل أن تندمَ » فهو لم يرض البيعة ليزيد ، ولم يوافق معاوية على ما أراد لابنه من المُلك ؛ وبهذه الحجة الحازمة جابه خليفة المسلمين ، مع قدرته على الفتك به . ولقد حذّر معاوية ابنه يزيد منه ، إذ كان لا يخشى عليه أحداً سواه ؛ قال لابنه : « إياك منه — ابن الزبير — إنه الثعلب الماكر ، والليث يصول بالجراءة عند الملاقاة ، فوجّهْ اليه كلَّ جدك وعزمك ، وأمّا ما بعد ذلك فقد وطّأت لك الأمر ، وذللتُ لك أعناقَ المنابر . . . » . فمعاوية السياسي الخطير ، والداهية العظيم ، لم يكن يخشى على خلافة ولده إلا عبدَ الله ؛ وإنما كان يتوقع الشر والوثوبَ من جانبه ، لما يعهده فيه من قوة الشكيمة ، وصدق العزمة ، وأنه لايستكين ولا يستخذى ، وأن صدره مطوىٌّ على أمور جسام

***

ويلحقُ معاوية بربه ، فيتجلى نزوع ابن الزبير للخلافة بصورة واضحة قوية ؛ حيث يتولى يزيد الأمر ، ويميل إلى السرف في المتع والشهوات ، وينغمس في ملاذه ، حتى لينسيه ذلك أن يعنى بأمور المسلمين على الوجه الذى يرضى جمهرتهم في سائر الأمصار ، ويضمن التفافهم حوله . حينئذ يغلى صدرُ عبد الله بمكنوناته ، فيتحفز ، وتزداد حرارة نفسه ، ثم ينطلق إلى منبر المدينة ، فيُلق من أعلى ذروته على أهل الحجاز كلمةَ الثورة على الخليفة الأموى ؛ يخطب القوم خطبة حماسية حارة ، يسب فيها يزيد ، ويذكر مقابحه وعيوبه ، ثم يبلغ كلامُه مسامع يزيد ، فيؤدى هذا إلى وقعة الحرَّة ، التى انتهك فيها جيش الخليفة حرمات المدينة ، مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذه نقطة سوداء أثيمة ، كان من شأنها تحويل قلوب كثيرة من مختلف الأقطار الاسلامية عن الخلافة الأموية ، وساعدت ابن الزبير كثيراً على مطلبه ؛ وقد قلنا إنه كان يتطلع إلى منصب الخلافة وزعامة المسلمين منذ زمن بعيد ، وكانت نزعته هذه تعتمد على عدة أمور : منها أن عثمان استخلفه على الدار يوم حصارها ، فتدخّله من هذا الاستخلاف طموح إلى الأمر ، ولقد كان يقول لئن أصبتُ بأبي فلقد أصبت بابنى عثمان ؛ وقوّاه على هذا أن طلحة والزبير قدّماه للصلاة بالناس أيام وقعة الجمل ، وكأنى به يقول لنفسه : لم لا أكون خليفةَ المسلمين ، والأمر لا يجرى على ميراث ولا يتبع قانوناً ؟ ولم لا يؤسس أسرة زبيرية ، كما أراد معاوية أن يُقيم دولة سفيانية ؟ وقد نمى عنده هذه الخواطرَ ما أنسه في نفسه من قوة الشخصية ، وشدة الاعتداد ، مع شرفه وجراءة قلبه . سأله ابن عباس مرة : عماذا تروم هذا الأمر ؟ قال بشرفي ! ، وقد وجد في أهل الحجاز ضراماً لناره ، فهم يؤيدونه على الأموية ، ولما اتخذ الحجاز مقراً لدعوته

(البقية في العدد القادم)

محمد حسنى عبد الرحمن

الشـــباب

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

مقـدمة

مستقبل الانسانية رهن بطموح الشباب الى المثل العليا وعزوفه عن حقيرات الأمور وإبائه الضيم للناس ولنفسه ، وبألا يقنع من الحياة بما يرى ، وبأن يحاول أن يبلغ من جليلات أمورها البعيد الدانى الى قلبه ونفسه ، وبأن يحاول أن يقهر طاغوت الأمور وجبروتها ، وأن يستنقذ الدهر من عبث العابثين الذين جعلوا الحياة مهزلة رخيصة ومأساة وضيعة الناظم

* * *

إن الشباب حديقة الأزمان ... عِطر الروائح ناصع الألوان
مثل الربيع إذا جلوت بسحره ... نَوْرَ الرُّبى وأطايب البستان
روحٌ من الفردوس يُثمِل نَشرُه ... تغدو الحياة به رياض جِنان
ما راعه حكم الحِمام وصَوْله ... إن الشباب من الخلود لَدانِ
لا اليأس يضنيه ولا جزع إذا ... كثر العثار وزلت القدمان
ينسى الذى يمضى لينشد مقبلاً ... مستأنفاً للعيش بالنسيان
ولو أن رفضا للقضاء يذيقه ... كأساً تذيب القلب من ذيفان
والشيب بالتسليم يكسر سمها ... حيث الشباب لِغرّة الأسوان
وهو المغامر فى الحياة بنفسه ... نشوان لا من خمرة النشوان
نشوان من خمر الحياة وكأسها ... تغنيه عن نشوات بنت الحان
فكأنما فلك الزمانُ قيودَه ... عنه وما للدهر من سلطان
ويصوغ من أحزانه نغماً له ... فكأنه خلوٌ من الأحزان
يسمو إلى الغرض البعيد طموحه ... ويرد خطب الدهر بالايمان
متحصن منـه بأمنع معقل ... متكفّل إيمانه بأمان
ويكاد من فرط الهناءة والهوى ... يدع الثرى ويهم بالطيران
والشيب يرسب فى الحضيض مخلفاً ... وترى الشباب كذروة الأكوان
ما أرّقته ذكرة من أشيب ... جم التردد خَطْوُهُ متـدانى
وله على إدبار دَهْرٍ عزةٌ ... تنأى به عن ذلة وهوان
كِبْرُ الشباب ولا اعتداد مُسوَّدٍ ... بالجاه والأجناد والأعوان
إن كان صعلوكاً فليس بخانع ... فكأنه ذو التاج والإيوان
إن العزيز هو العزيز على الصبى ... والشيب مهما عز ذل جَنَان
ذل الجَنَان لوهن جثمان ولا ... ذل كذل الوهن فى الأبدان
ورث المراح ذخيرةً لمبـذر ... خال الحياة رخيصة الأثمان
لَذّاتُه دَيْنٌ يؤديه إذا ... حل المشيب وهد من جثمان
تتعادل اللذات فى ريعانه ... ولواعج للشيب فى ميزان
عهد الصراحة والمروءة والندى ... وتألُّف الخلان بالخلان
عهد المحبة والإخاء وربما ... تُلفيهما فى القلب يترجمان
عهد إذا طلب الذكرى لم يُغنِه ... ذكرى المشيب مؤرّق الأحزان
عهد الصبيّ عهد المنى ، فإذا مضى ... لم يبق إلا مُرُّ سُؤْرٍ دان
وتكاد ذكراه إذا فات الصبى ... تحيي الصبى وترد عهد زمان
أطاعه عُلْويةٌ ، أحـلامه ... ذهبيةُ الآمال كالعقيان
عهد الصيال ولا صيال لأشيب ... هاب الحياة وصولة العدوان
والخطب أن يهوى المشيب بصائل ... ما كان يخشى جولة الحدثان
حتى تراه بالحياة مُرَوَّعاً ... قلق الضلوع مؤرّق الأجفان
والخوف طبع فى المشيب وقلما ... تلقى الشباب على غرار جبان
ولربما جمح الشباب بمادر ... عَبَدَ الحياة عبادة الشيطان
ولربما عبد الحياة أخو النهى ... كعبادةٍ لله والأوطان
قال المشيب ورُبَّ قولة صامت ... تعظ المصيخ له بغير لسان
ما سَرّنى أنى فطنت وإننى ... والحلم والتبيان فى أكفان
ونسيت ما نَشْرُ الجنان وخلدُها ... وذكرت أن العيش مهلة فانى
ولقد علمت الآن ما عهد الصبى ... من بعد جهلى فيه والنسيان
والآن عالجت الحياة كما أرى ... لا ما أريد من البعيد الدانى
وعددت من سُنَن الحياة وحكمها ... ما يفعل الانسان بالانسان
فى حرصه أو قَسْوِه أو رِقِّه ... من فتكه بالروح والأبدان
وفزعت من ظُلْم الحياة وطالما ... ذَلّتْ منها أيّما طغيان
وتلوت فى التاريخ آيات الأسى ... مسطورةً بمدامع الأحزان
فمتى الشباب يقبل من دهره ... يبلو الحياة بعزمة وأمانى
ويَسُنُّ للدنيا الوسيعة سُنّةً ... لا سنة للحرص والحرمان
يستنقذ الأزمان من عبث الورى ... ويُطهّر الاحشاء من أضغان
ويُذِل طاغوتَ الأمور فيحتذى ... شرعُ الحياة شريعةَ الرحمن
ويُحيلُ ظلم العيش عدلاً سائغاً ... يُنْسى به ما كان من عدوان

عبد الرحمن شكرى

ذكرى سعد

للأستاذ فخرى أبو السعود

تهفو لذكرك أنفس ومشاعر   وتجود أفئدة له وخواطر
ويفيض شعر من علائك قابس   ويتيه فخراً فى مديحك شاعر
وعلوت أنت فما يزيدك مادح   مجداً ولا يعلى مكانك ذاكر
يا فخر مصر فى الشعوب على المدى   ما قام فيها بالرجال مفاخر
كانت حياتك صفحة كم سطرت   فيها لمصر محامد ومآثر
أنت النبى أعليت خافت صوتها
والخصم يرعد والخطوب بواسر
فشدت بذكرك ألسن وصحائف   وبذكر مصر عواصم وحواضر
روعت عنها غاصباً متجبراً   للموت من أسيافه متقاطر
ليث يروع العالمين مهابة   فذراعه من ليث مصر زماجر
لما رأوك تثير شعباً هامداً   وتمج سحر القول قالوا: ساحر
لو أنصفوا قالوا: نبى مرسل   الوحى يتبع خطوه ويساير
أديت أمس رسالة علوية   العز أول آيها والآخر
فى عهدك الزاهى الأغر — ولم يطل —
ينعت أمانى البلاد زواهر
شرقت لمصر سيادة كانت خبت
من عهد فرعون وعز باهر
وطلعت فى دست الرياسة قائداً   فى راحتيه أزمة ومصائر
ومثلت فى دار النيابة مدرهاً   شخصت إليه جوارح ونواظر
أنى حللت سما بمجدك منصب   أن زانه سعد العظيم الكابر
استقبلت بك مصر سالف رفعة   وبدت لمأمول النهوض بشائر
فأتت ثمان بعد ذاك كأنها   دهر على الوادى للروع داهر
ومددت بها الآمال فى إبانها   وتلت سناك على البلاد دياجر
سرقت زمام الحكم فيها عصبة   لا عاد عهدهم الأثيم الداثر
من كان قاع السجن مأوى مثلهم
عمرت محافل باسمهم ومنابر
أجروا على الأهلين ما لم يجره   فى سالف الأحقاب غاز فاجر
وتحكموا والأجنبى مظاهر   لهم وجند الأجنبى مناصر
أوهى وأوهن ما رأوه شرائع   عبثوا علانية بها ودساتر
أعداء مصر هم كواشح سعدها   قد شفهم حقد عليه ساعر
نقموا عليه فى النفوس مكانة   قصرت مساعيهم عن دركها تتقاصر
ضنوا على سعد بتمثال وقد   ضمت جوانح رسمه وسرائر
فى موطن كم فاز بالأنصاب فى   ساحاته علج دخيل ماكر
وحموا بقيته ضريحاً شاده   لرفاته الشعب الحفى الشاكر
ولو استطاعوا فوق ذاك لما ثوى   فى مصره جسد الزعيم الطاهر
حسد لعلياء الرئيس وفضله   حياً وميتاً ما يزال يساور
إن يمنعوا عنه بناء حجارة   فله البناء المشمخر الفاخر
بنيان مجد شاده بيمينه   هيهات يبلغه الحسود الخاسر
يمضون فى غدهم حطاماً مغفلاً   وهو المخلد فى العصور الظافر

فخرى أبو السعود

راتبى

للأستاذ محمود غنيم

ولى راتب كالماء تحويه راحتى
فيفلت من بين الأصابع هاربا
إذا استأذن الشهر التفت فلم أجد
إلى جانبى إلا غريماً مطالبا
فأمسيت أرجو نعية يوم وضعه   وليس الذى يمضى من العمر آيبا
لعمرك ما فوق المكاتب راحة   ولا تحتها كنز يدر المكاسبا
قضيت حياتى بين دارى ومكتبى
فألفيت وجه العيش أصفر شاحبا
تشابهت الأيام عندى كأنما   مضى العمر يوماً واحداً متعاقبا
فقل لشباب النيل قالة ناصح   تعاف له أخلاقه أن يواربا
إذا مصر لم ترفع قواعد مجدها   بساعدها لم تقض منه مآربا
وإن تك فى كل المرافق عالة   على غيرنا عشنا بمصر أجانبا
أما من سبيل للحياة وغيرنا   يرى سبلاً شتى لها ومذاهبا؟

محمود غنيم

فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية

١٧ – تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا

فريدريك نيتشه

للأستاذ خليل هنداوي

غزوات نيتشه

أثرت في نيتشه تعاليم شوبنهاور تأثيراً ظهر في كتابه « نشأة المأساة » وعنه إقتبس قواعد كتابه . فاتخذ الارادة منه كشيء قائم بنفسه ؛ والذاتية في الوجود مصدر كل ألم ، والموسيقى كائنة أصيلة للارادة . وفي الكتاب ذاته يرحب بشوبنهاور ويحييه تحية العبقرية ، يرى فيه هاديه إلى الحقيقة ، ويحلل تأثيره وما يمكن لهذا التأثير أن يفعله في الأرواح الحديثة . يقول : « إن انسان اليوم يتحرى عن ذاته ، ولا يفتأ يتحرى حتى تهديه الصادفات إلى معلم نافع فيتبعه ، لا يعمل هذا المعلم على تخطيط آثار وتعيين طريق من الطرق المختلفة ، ولكنه يعمل على استنقاذه من كل ما يمسك عليه حريته ويحول بينه وبين الوصول إلى هذه « الذات » الغامضة المتوارية في أحناء كل انسان » ، ولم يكن معلمه إلا شوبنهاور

شاهد فيه للوهلة الأولى ذلك الفيلسوف الصادق المستقيم الذي يتحرى عن الحقيقة في كل ما حبر وسطر . وفي مدرسة شوبنهاور تعلم نيتشه أن يرى الحقيقة كما هي بما فيها من قبح وما تنطوي عليه من ألم . وتعلم أن العبقرية يجب أن تناضل عصرها وأبناء عصرها حتى تحمل الناس على الاعتقاد بوجودها ؛ فهي حين تناضل الضعف وتحارب الرذيلة ، تحاول في هذا كله أن تطهر ذاتها من كل الأوضار التي دخلت عليها من مجتمعها

وأخيراً وجد نيتشه في شوبنهاور تعريفه لحياة البطولة ؛ (أما الحياة السعيدة فهي ضرب من المحال . ولكن الذي يمسح الانسان بمسحة الجلال هو أن يعتنق حياة البطولة ، وأن يقضي وجوداً تزينه الرجولة . لا تحفل بأن تكافأ على حياتك ، فخير ما تكافأ به نفسك أن تكون عظيما ظافراً ، ذكراك تبقى حية ، وأنت تمجد تمجيد الأبطال ؛ وارادتك تثب من خطر إلى خطر ، وتصعد من قدر إلى قدر ، حتى تتلاشى في « النرفانا ») وهكذا خال نيتشه أنه وجد في شوبنهاور روح « ديونيزيوس » التي تعتمد على الارادة وحدها

الغزوة الرابعة

وهناك صداقته القديمة للموسيقي الفنان « ريشارد ڤاجنر » هذه الصداقة التي يعود عهدها إلى أيام الحداثة ، ما عمرها إلا اعجاب نيتشه بآثار هذا الفنان اعجاباً تسامى عن اعجاب فنان بفنان إلى امتزاج انسان بانسان ؛ فقد تقاربا وتعاشرا ردحاً طويلاً من الزمن ، كانا خلاله مثلين للثقة العمياء والمودة الراسخة ؛ وظلا ثابتين على هذه الصداقة حتى شاءت الظروف أن تفرق بينهما ؛ فمضى « ڤاجنر » إلى « بايروت » حيث أسس فيها داراً للتمثيل ، فكان نيتشه يعوده بذات الاعجاب ؛ وفي احدى مطالعاته الأخيرة وصف « ڤاجنر » كبطل من أبطال العبقرية على النحو الذي ذهب اليه في معلمه « شوبنهاور » ، ولكن هذا أدى رسالته عن طريق الفلسفة ، وذاك يؤديها عن طريق الفن بأسلوب حي يمازجه شيء من الغموض ، هو ذلك العبقري « الديونيزوسي » الذي لا يستطيع أن يعبر عن عالم عواطفه الزاخرة في نفسه بطريقة الكلام والبيان الناقص ؛ فهو عبقري جمع اليه جملة فنون متصاحبة : فيه براعة الممثل ، وعبقرية الموسيقى ، وسمو الشعر ؛ تساعده كلها على التعبير عما يخالج نفسه ويغشى حسه ، وقد كان هدف « ڤاجنر » من افتتاحه لدار التمثيل أن يخلق درامة بموسيقية يُحيي بها عهد المأساة عند اليونان ؛ وإن تحقيق هذه الدرامة ليُعد أول محاولة من نوعها في تاريخ أدب الغرب الحديث ؛ لأنها محاولة لا ترمى في الحقيقة إلا إلى احياء العبقرية اليونانية الهامدة ، ولو أن هذا العمل قُدر له الانتصار والبقاء ، لاعتبر طليعة صادقة من فجر جديد في تاريخ الانسانية

ولكن نيتشه بعد انجازه ما كتب بأسابيع قفل راجعاً إلى أهله ، وقد تراكم عليه اليأس والضجر ، فجعته الأيام في أحلام صباه ، وانتصر فيه اعجابه بفاجنر على كل شيء

هذا نيتشه الذي كان قذفة كل خاطرة طفق يدنو من استقلاله الفكري الذي قهره عليه سلطة هذين المعلمين ، وهو أحد

التعصبين لأفكارهما وآرائهما ، وأحد العاملين على بثها ، لأنهما في اعتقاده أكمل ما جاد به المثل الأعلى . ولكن نيتشه أخذ يعمل بينه وبين نفسه على الانفصال من قيودهما . وقد عرفنا كيف انفصل عن « شوبنهاور » في مسائل واضحة من مذهبه . فقد أصبح يرتاب في كل ما ينطوي عليه هذا المذهب من المسائل التصورية ، وفي التفصيلات التي يعزوها صاحبها إلى الارادة ، وفي الارادة التي يزعم صاحبها أنها كنه أكناه الكون ، وفي الشيء القائم وجوده بنفسه . وبعد قليل حمل على التشاؤم الذي يدعو إليه شوبنهاور ، فأبى الخضوع والاستسلام ورفض الجنوح للسكون الفلسفي . وبهذا قضى على فلسفة الحكمة « الراكدة » اللابسة لباس اليأس . هو يريد الحقيقة مهما كان ثمنها . ولو كان للعلم فوز في تضحية بني البشر لفعل . ويمدح الحكمة المزوجة بالمأساة ، التي تكفر بعلم ما وراء الطبيعة ثم تخضع المعرفة لها لتخدم أجمل شكل في أشكال الحياة ، ويعيد للفن حقوقه التي انتزعها العلم منه ، هذه الحقوق التي تخول الأنسان حق التخيل وحق التوهم

ولم يكن حكم نيتشه على « فاجنر » أقل جرأة وقسوة . فقد أخذ يبدي فيه مواضع ضعف يحسبها الناظر ذخائر جمال ، ويظهر ما يطغى على روحه من روح الفوضى والاضطراب . ويقارن بينه وبين « باخ وبيتهوفن » اللذين هما أسمى مزاجاً منه . وأصبح في شك من قيمته الفنية التي تدس فيه الموسيقي والشاعر والمفكر . وأخذ عليه تشبثه بالقديم وعودته إلى الآراء القديمة . منها توقانه إلى القرون الوسطى وميله إلى المسيحية والقهول البوذي ، وحبه للأشياء الغريبة . أصبح في شك من أي تأثير يحمله « فاجنر » إلى الشعب الألماني

هذا نيتشه الذي كان يرى في موسيقى « فاجنر » المثل الأسمى قد انقلب عليها وجحد بها ، فما هي علة هذا الانقلاب ؟

يقول نيتشه جواباً على هذا السؤال أثناء تحدثه عن شوبنهاور « إننا نخاله فيلسوفاً : ثم نرى : إذا خدع في الأسلوب الذي أبدى به ملحوظاته فان هذه اللحوظات لا يشوبها خلل . لأن منازل هذه اللاحظات لا خلاف فيها ، فهو كفيلسوف يعلّم قد يكون مخطئاً مائة مرة . ولكن شخصيته ذاتها لا تظهر إلا على حقيقة ، مرتدية أزياء الحقيقة . . . وههنا مجال النظر والتأمل ؛ ففي الفيلسوف شيء لا تنطوي عليه الفلسفة ، هذا الشيء هو الذي يخلق الفلسفة ويولد العبقرية » . وفي هذا الرأي يكاد يتبين لنا هوى نيتشه وميله لهذين الرجلين ، فهو قد مال إليهما بآثارهما والتعصب لها . ثم انقلب هذا الميل والتعصب إلى الآثار إلى إعجاب مجرد بالشخصية ، فأحبهما كرجلين عبقريين منفصلين عن آثارهما . ثم عمل على أن يتجنب كل ما يعكر هذه الصداقة أو يشوش أسبابها ، ولكنه اضطر إلى نقد مالا يوائم فكرته نقداً عاماً ، وأخيراً اقتربت تلك الساعة التي وجد فيها أن الفواصل التي تفصله عنهما هي أكبر من أن تُخنق

وألفى أن في سكوته عنها خيانة لنفسه . فبدأ ينقد آثارهما ويظهر أخطاءهما . وهو في كل ذلك لا يحاول أن يفهمهما بحقيقتهما ولكنه عامل على تفهيم نفسه بالاتصال بهما ؛ وهو بدلاً من أن يصور نفسه بصورتها رأيناه قد حوّل صورتهما إلى صورته ، وأذاب ذاتهما في ذاته ، كالبحر الذي يحول فيه القرات أجاجاً . وصورة « شوبنهاور » التي رسمها نيتشه ليس بينها وبين صورة الفيلسوف الحقيقية مشابهة ، وإنما هي صورة للمثل الأعلى للفيلسوف « التراجيدي » كما يتخيلها نيتشه . وهكذا قل في صورة « فاجنر » . وهو دائماً لا يعبر في كل ما يصف ويصور إلا عن حلمه الباطن

(يتبع) خليل هنداوي



صور من هوميروس

حروب طروادة

التفاحة المشئومة

للأستاذ دريني خشبة

نشيد الزمان!

وقصيدة الماضي!

وغناء السلف!

وحُداء القافلة التي لا تفتأ تخب في بيداء الأزل، إلى الواحة المفقودة في متاهة الأبد؛ رُكبانها الآلهة، وأبولو وكيوبيد ومَلؤها ولدانها المخلدون!

* * *

أنشد يا هوميروس!

واملأ الأحقاب موسيقى!

واللانهاية جمالاً وسحراً!

فالأرواح ظامئة، والقلوب متعبة، والانسانية واجفة، والآذان مكدودة من دوىّ العصر، فهي أبداً تحنّ إلى سكون الماضي!

* * *

لن تصمت يا هوميروس!

فالقيثارة الخالدة ما تزال بيديك!

والقلوب هي القلوب!

فدع أوتارها تملأ الدنيا رنيناً، فلقد أوسعتنا هذه الدنيا أنيناً؛ ورتينك العذب أذهب لأنين الشاكين الباكين!

— ١ —

رآها تخطر فوق الثبج، وتميس على رؤوس الموج؛ فهام بها، وشغلته زماناً عن أزواجه في قصور الأولمب، فكان يقضي عند شاطئ البحر أياماً يترقب الفرصة السانحة، ويفتش في كل موجة عن حبيبته «ذيتيس»... عروس الماء الفاتنة، «ذات القدمين الفضيتين[1]»، ابنة نريوس، رب الأعماق؛ الثاوي مع زوجته الصالحة دوريس، في قصور المرجان... هناك... هناك تحت العُباب...

ورقت له الفتاة، حين علمت أنه رب الأرباب، وسيد آلهة الأولمب، زيوس العظيم، فوصلت بحبالها حباله، تطمع الخبيثة أن تصبح زوجة أولمبية عظيمة، تصاول حيرا أم مارس وفلكان، وتفاخر لاتونا أم ديانا وأبولو، وتدل على ديون أم فينوس... وعلى سائر ربات الأولمب!

وابتسم لهما الزمان، وتساقيا كؤوس الغرام دهاقاً؛ وأوشك الاله الأكبر أن يبني بها لولا وسواس خامر قلبه، فآثر أن يستشير ربات الأقدار[2] قبل أن يبت في الأمر أو يقطع فيه بشيء

ولقد شاء حسن طالع الاله الأكبر أن يفعل؛ إذ أخبرنه أن ذيتيس الجميلة التي يهواها سيد الأولمب، تلد غلاماً ما يزال يقوى ويشتد حتى يخلع أباه ويستأثر بالملك من دونه؛ أو على الأقل، تكسف شمسُ عظمته شمسَ أبيه، فيعيش إلى جانبه إمَّعةً لا شأن له. وهوّنّ خدثنه عما يكون للغلام من مقام حين يثار النقع، ويستحر القتال، بين شعبه «الأغريق» وجيرانهم «الطرواديين»...

---

(١) العبارة من هومير

(٢) زيوس هو صاحب الأمر والنهي على جميع الآلهة في الميثولوجيا اليونانية، ما عدا ربات الأقدار Fates وهن ثلاث ربات: (١) كلوتو صغراهن تغزل حبل الحياة من خيوط بيضاء وسوداء، (٢) لاخيسيس تبرمه فتجعل منه المتين والواهي، (٣) أتروپوس كبراهن وهي تقطع الحبل جزءاً فجزءاً بمقص كبير.

وخفق قلب زيوس ، وذكر تلك الحرب الضروس التى انتصر فيها على أبيه ساترن (١) بعد فظائع وأهوال ، فأشفق أن يكون له ولد يصنع به ما صنع هو بأبيه

لذلك قصر هواه ، وأصدر على غفلة من كل آلهة الأولب إرادة سامية تقضى أن تتزوج ذيتيس من بليُوس ملك فيتيا ، الذى كان هو الآخر مولعاً بها ، مشغوفاً بجمالها حباً . . . حتى لقد خطبها إلى أبيها غير مرة فرفض رب الأعماق أن تبنى ابنته على بشرىٍّ هالك ولو كان ملكا . بيد أنه صدع بأمر الإله الأكبر ، وقبل بليوس لابنته بعلاً . . .

وحزنت ذيتيس ، وانعكفت فى غرفتها المرصعة باللآلىء تشكو وتبكى ؛ فلما علم زيوس ما حل بها ، زارها من فوره ، وطفق يلاطفها ويترضاها ، حتى رضيت أن تكون زوجة لبليوس الملك : « على أن تحضر بنفسك ، أنت وجميع الآلهة ليلة الزفاف ، وليعزف أبوللو على موسيقاه ، ولترقص ديانا ربة القمر . . . »

— ٢ —

ودُقت البشائر ، واضطرب بطن اليم ، وانشق الماء عن طريق رحب يتهادى فيه موكب الآلهة إلى قصر نريوس فى أعماق المحيط ، ووقفت الأوسيانيد والنيريد وسائر عرائس الماء صفوفاً صفوفاً تحيى الضيوف الأعزاء ، الأوداء الأحباء ، وتغنى وتنشد وترسل ألحانها الخالدة موقعة على الوسيق الشجية

وانبرى أبوللو يوقع على قيثارته الذهبية . أبوللو ! ! الذى اشترك فى بناء أسوار طروادة ، فلم يكن يصنع شيئاً أكثر من أن يلعب بأنامله على أوتار القيثارة ، فتقفز الحجارة مترنحة من الطرب إلى مكانها من الأسوار !!

وانطلقت ديانا ترقص . . . فما علم أحد من الآلهة أخطرات نسيم تهبط من القمر الفضى ، وتعلو فى السماء ، أم ديانا الهيفاء ترقص فى القلوب والأحشاء !!

ونهض الجميع إلى القصف الفاخر الذى تفننت فى تنويع آكاله وأشربائه أيدٍ إلهية ماهرة ، فأكلوا ما لذ ، وشربوا ما طاب ، وأخذوا فى سمر جميل . وكانت هرمز يرسل نكاته الطريفة فيفرقع المكان الحاشد بالضحك . وتُدوّى الأكف بالتصفيق . !

وبينما الآلهة فى قصفهم ، لا يفكر أحدهم إلا فى هناء العروسين ، إذا بالربَّة الخصيم أريس (١) تظهر فجأةً فى وسط الجماعة ، ثم شرعت تقلب فيهم عينين تقدحان بالشرر ، وتنفثان سم البغض ، وعلى رأسها القاحم الأسود تلوى خصَلٌ ثعبانية شائهة ذات فحيح وسلسلة ، وعلى صدغيها الأرمين يُخشخش عقربان منكران لكل منهما ذُنابَى يقطر الموت الأسود منها ههنا وههنا

ظهرت إريس غاضبة حانقة ، لأن القائمين بالدعوة إلى العرس أغفلوها فلم يرسلوا إليها بالدعوة التى أرسلت إلى الأرباب جميعاً . وهم قد قصدوا إلى ذلك عن عمد ، لأنهم خشوا على العروسين من أذاها الذى ما تفتأ تثيره فى كل مكان وَطِئته قدماها . أليست هى ربة الخصام ، النافخة فى نار العداوة التى تتضرم منذ الأزل فى الجوانح والقلوب ؟

لكنها لم تنس لهم هذا الأهمال ، بل أقبلت ، وهى تتميز من الغيظ ، لتقلب هذا العرس الكريم إلى مأتم أليم

ولقد أوجس الآلهة جميعاً خيفةً حين رأوا إليها تقلّب فيهم ناظريها المشتعلين ، غير أنهم اطمأنوا قليلاً ، حين رأوها تنصرف بعد إذ ألقت على الخِوان الفخم تُفاحةً كبيرة من الذهب ، نُقشت عليها هذه الكلمة الملتهبة : « للأجمل ! »

— ٣ —

باريس :

درجت عادة القدماء أنه كلما وُلد لأحدهم غلام توجه من توِّه إلى الهيكل يقدم القرابين ويزف الهدْى ، ثم يستوحى المعبود عما يكون من مستقبل ولده وما يفيض به من سعادة أو شقاء ، ليأخذ للأمر أهبته ، وليعد لكل شىء عدته

فلما وضعت هيكيوبا ، ملكة طروادة ، غلامها باريس ، حمله أبوه الملك ، بريام ، إلى هيكل أبوللو ، ليرى رأى الإله فيه

واربدّ وجه الملك الشيخ ، وتقضّضت أساريره ، حين قال له كاهن المعبد : إن ولده سيكون كارثةً على قومه وعلى بلده !

(١) حرب طويلة لايتسع هذا المكان من الرسالة للتحدث عنها ، ويرجع إليها فى الميثولوجيا من شاء

(١) تسمى أيضاً دسكورديا (ومعناها نزاع) أو إيتيه

يأتى من الأثم ما يجر إلى قتل آله وبنى جلدته ، ويُفضى إلى سقوط طروادة فى يد أعدائها

وتحدث برام إلى هيكيوبا فى ذلك ، فصمما على الخلاص من الطفل بتركه فى العراء ، فوق واحدٍ من جنبات الجبل ، ينوشه طير جارح ، أو تفترسه ذئاب البرية . وأنفذا فلتهما الشنعاء ! ولكن القضاء ينبغى أن يتم ، والقدر يجب أن يأخذ مجراه ! فلقد جاز بهذا المكان من الجبل أحد رعاة الأغنام فوجد الغلام وفرح به ، واتخذه لنفسه ولداً ؛ ثم سهر عليه واعتنى به ، ونشأه تنشئة الفروسية التى كانت أحب مزاولات الحياة فى هذا الزمن

وشب باريس فتى يافعاً ، جميلاً ممشوقاً ، فعمل مع الراعى الذى أنقذه . وكان مولعاً بالبحر ، تشوقه أمواجه ، وتفتنه أواذيه ، فكان يختلف إليه ريثما تفئ الأغنام من الحر ، يلهو بالسباحة ، ويتريض بمصارعة الموج . وبدت له إحدى عرائس الماء – إيونونيه – وكانت قسيمة وسيمة ، فهويها وعلقها قلبه ، وما لبثت أن أصبحت أعز شيء عليه فى هذه الحياة

وعشقته إيونونيه ، وأخلصت له الحب ، وكانت تنتظر أوبته من رعى الغنم كما ينتظر الظمآن جرعة الماء ، والعليل برد الشفاء وا أسفاه !

لقد قضت ربات الأقدار – كلوتو وأختاها – ألا يدوم هذا الحب طويلا [1] !

– ٤ –

اجتمع الغانيات حول التفاحة كل تريدها لنفسها ، وكل تدعى أنها أجمل من فى الحفل جميعاً . . . ثم ساد صمت عميق حين نهضت حيرا وميترفا وفينوس ، ميممات شطر الجهة التى يتنازع فيها الغانيات من سائر الربات على التفاحة الثمينة . . .

– « أنا حيرا العظيمة ، مليكة الأولمب ، وصاحبة الحول والطول فيه ، وآثركن إلى قلب الإله الأكبر ، أنا ، أحقكن بهذه التفاحة العلوية ، وأعرفكن بقدرها . . . سأضمها إلى تفاحات هسبريا [2] ، فهى بهن أليق ، وهن عليها أحنظ . . . سيباقها مع أخواتها الثلاث لتزداد بها حداثتهن . . . »

– « أنت تفاخرين بملك الأولمب ، وبالجاه والسلطان ؟ إذن أين جمال الحكمة ، وأبهة الموعظة الحسنة ، وجلال الرأى السديد ؟ بل أنا . . . ميترفا . . . ربة الهدى والسبيل الحق . . . أحق منك بهذه التفاحة . . . »

– « فيم تختصمان يا أختىّ العزيزتين ؟ أليس قد كتب الحكم على التفاحة نفسها ؟ أليست هى للأجمل ؟ أو لست أنا . . . فينوس جميعاً . . . ربة الجمال ؟ لِمَ تربعت على عرش الفتنة إذن ؟ هى لى من دونكما ! . . . »

واختلف الآلهة ، وساد هرج ومرج ، ولم يجسر أحد ممن احتشد حول الخوان أن يفوه بكلمة يفصل بها إحدى الربات الثلاث حتى لا يقع فى سخط الأخريين ، وحتى لا يكون أبداً عرضة لنقمتهما . . .

وتفرق الجمع بدداً

وقصدت الربات الثلاث جبلاً شامخاً يشرف على البحر فتلبثن به ، واتفقن على أن يفصل أول عابر ، مهما يكن شأنه ، بينهن فى أمر التفاحة ، وتعاهدن ، بالايمان المغلظة ، أن يخضعن لحكمه ، وأن تكون كلمته فصل الخطاب فيما اختلفن فيه

وتنظرن طويلاً ؛ وكان البحر يضطرب من تحتهن فيقذف باللآلىء والمرجان ، كأن إلهاً حاول أن يشبع نهم الربات بالجواهر الغالية فلا يتشاجرن من أجل تفاحة ، ولكنهن ما كن يأبهن لحصباء الدر المنثور على الشاطئ ، بل ما كانت أعينهن تريم عن لُقية إيريس ! !

وكانت عروس فتانة من عرائس الماء تعلو وتهبط مع الموج ولا تفتر تحدق ببصرها فى الجهة التى جلست بها الربات يتربصن . . .

وكانت إيونونيه من غير ريب ! وكان الجبل مُستراد باريس الذى يُريح فيه قُطعانه ، ثم ينطلق للقاء حبيبته ، فيتباثان ويتشاكيان

وأقبل باريس يشدو لشائه ويغنى ؛ فزلزل قلب إيونونيه ، وهلعت نفسها ، وفرقت على حبيبها فرقاً شديداً ، ذلك أن أخبار النزاع الذى انتهى اليه يوم الزفاف من أجل تفاحة إيريس كانت قد ذاعت وشاعت ، وتسامع بها كل عرائس البحار ؛ فلما

(١) نظم الشاعر الانجليزى الفنانى الفذ ألفرد تنيسون مأساة إيونونيه نظماً رائعاً ، وهى من خير شعره ويجدها القارئ فى ديوانه ص ٧٤–٨١ طبعة كلنز

(٢) راجع قصص « هرقل » فى الأعداد السابقة من « الرسالة »

عرفت إينونيه ما اجتمع الربات فى هذه الناحية من الجبل من أجله ، اضطربت أيما اضطراب ، وقلقت على باريس أيما قلق . لأنه وحده هو الذى يجوز بهذا الطريق ، حين ينفذ إليها يحلمان ويتناجيان . وكان مصدر قلقها هو ماعساه أن يجره على نفسه — إذا قضى بينهن — من سخط الربتين اللتين لا يقضى لهما بالتفاحة . . .

— ٥ —

وصاحت حيرا : « قف أيها الراعى الجميل فاحكم بيننا فيما نحن مختلفون فيه . تلك تفاحة من الذهب ساقتها السماء إلينا منحة منها لأكثرنا جمالاً وأسطعنا رونقاً ، وأنا — حيرا — مليكة الأولمب وذات الحوْل والطوْل فيه ، وربة التاج والصوْلجان ، وصاحبة القوة والسلطان ، وآثر أزواج زيك ، كبير الآلهة ؛ وأحبهن إليه . . أنا — حيرا ذات الجبروت — وولدى مارْس إله الحرب ، ورب الطعن والضرب ، أقوى أبناء زيوس العظيم . . . وولدى فلكان كذلك ، إذا شئت سرد لك الدروع من حديد فتصبح سيد أبطال العالم ، لا يُشق لك غبار ، ولا يجرى معك فى مضمار ! إذا خضت حرباً حماك مارْس وأيدك ، ونصرك فلكان وآزرك . . . ألست ترى إذن أيها الراعى الجميل أننى أحق من هاتين بتلك التفاحة ؟ أنا — حيرا مليكة الأولمب — سأمنحك الثروة التى لا تفنى ، والسلطان الذى لا يبيد . . . سأجعلك ملك هذه الديار التى ترى . . . ستكون صاحب عرش وتاج ، وستستريح إلى الأبد من هذه الحياة الضنك التى تحياها . . . أنت جميل يا فتى . . . وأنت بعرش عظيم أولى منك بهـذا القطيع الذى يثغو . . . »

وصمتت حيرا . . . وجعل باريس يقلب فى التفاحة ناظريه ، وفى قلبه مما رأى وسمع فرَقٌ عظيم . . .

لقد كانت حيرا تختال فى ثوبها الأولمبى الموشى ، وكان طاووسها الجميل — الذى اتخذته منذ الأزل رمزاً لها — يتشبث بناصيتها ويميس ، فيزيدها جلالاً وكبرياء

— وأوشك الفتى الراعى أن يقدم التفاحة لحيرا ، لولا أن صاحت به مينرفا :

— « على رسلك أيها الشاب . . . اسمع منا جميعاً ثم اقض بيننا . . . أنا لن أزخرف عليك بملك ولا سلطان ، فأنت أعقل من أن تنخدع للعرض الزائل ، وأعلى من أن يهيمن جسمك على عقلك ، وهواك على قلبك . . . أنا مينرفا ربة الحكمة والهة الروح الأعلى القدس . . . سأمنحك السداد ، وسأكشف لك حجب الجهالة ، وسيضىء مصباح المعرفة بين يديك فتكون أهدى الناس ، وأعلم الناس ، وأحكم الناس . . . »

وسكتت مينرفا ؛ وسُمع هاتف من جهة البحر يصيح : « باريس ! اعطها لمينرفا يا باريس . . . » ، وكانت إينونيه ماقى ذلك شك ! !

وكاد باريس يلقى بالتفاحة فى يدى مينرفا . . . لولا أن تقدمت ڤينوس الصناع . . . ڤينوس الحلوة . . . ڤينوس الساحرة . . . ڤينوس ذات الدل . . . ڤينوس التى تكفى غمزة ما كرة من طرفها الفاتر الساجى لاذلال ألف قلب . . . . . لولا أن تقدمت ڤينوس كلها تطارد قلب باريس وتحاصر عينيه حتى ما يقعان إلا على عينيها . . . . . . تقدمت ڤينوس ترنو وتبتسم ، وتتبرج وتهتز ، وتشد هذا الثدى وتثنى هذه الذراع ، وتميل برأسها الذى كله خدود وعيون وأصداغ . . . تقدمت ڤينوس تبسم للراعى الجميل عن فم حلو رقيق ، تتلألأ ثناياه ، ويتضوع عبير خمره ، وقالت :

« باريس ! هل لك عينان تمرقان الغزل ، وقلب يعرف الحب ؟ . . . باريس ! أنا ڤينوس التى صليت لها بالأمس ، والتمست منها التوفيق . . . ها أنا ذى يا باريس . . . أليست التفاحة للأجمل ! ألست تحب أن أهبك أجمل زوجة فى العالم ؟ ستكون زوجتك مثلى ، تغمرك بجمال لا نهائى لاحدود له ، ولن تشعر معها إلا أنك تعيش منها فى جنة . . . قبل . . . نظرات حلوة . . . خد مورّد . . . أهداب كظلال الخلد . . . ساق ملتفة عبلة . . . جسم ممشوق طوال . . . جيد مهتز ناضج . . . ثدى مثمر يتحلب نعيما . . . . . . هاتها يا باريس . . . هاتها يا حبيبى . . . »

وقبل أن تتم الخبيثة سحرها ، كان الفتى البائس قد ألقى التفاحة فى يديها الجميلتين ، برغم الصيحات المتتالية التى كانت تهتف به من البحر : « لا يا باريس . . . لا يا باريس . . . إعطها لمينرفا يا باريس . . . ! »

وجر على نفسه غضب حيرا ومينرفا ، وكتبت التعاسة عليه وعلى قومه . . . ولم يلق إينونيه بعدها ! !

(لها بقية) دريني خشبة

البريد الأدبي

نصوص سريانية عن العلوم الاسلامية في بغداد

صدرت أخيراً في انكلترا موسوعة نفيسة للعلوم العربية وأحوالها في بغداد في أوائل القرن التاسع الميلادي (أوائل القرن الثالث الهجري) وعنوانها : « موسوعة للعلوم الفلسفية والطبيعية كما كانت تدرس في بغداد حوالي سنة ٨١٧ م » أو « كتاب كنوز أيوب الرهاوي » ، وقد نشرت هذه الموسوعة بالسريانية وهو نصها الأصلي مقرونة بترجمة انكليزية وملاحظات نقدية بقلم العلامة الشهير الدكتور منجانا صاحب مكتبة « رينولدز » الشهيرة التي تحتوي طائفة كبيرة من أنفس المخطوطات الشرقية ؛ وقد سبق أن نشر الدكتور منجانا بعض هذه النصوص والتراجم نقلا عن المخطوطات السريانية والجرشونية التي تحتويها مكتبته . وهو يقول لنا في مقدمته إن هذا الجزء هو المجلد الأول في سلسلة جديدة علمية يراد إصدارها

وأهمية النصوص السريانية في تفهم أحوال العلوم الاسلامية الأولى تبدو جلية متى ذكرنا أن العرب حينما بدأوا ترجمة العلوم اليونانية ، استعانوا في نقلها بالسريانية ، فكانت تنقل أولاً إلى السريانية ثم تنقل بعد ذلك إلى العربية ، وكان أعظم أولئك المترجمين كما هو معروف حنين بن اسحاق ، أما أيوب الرهاوي هذا صاحب « الكنوز » التي أصدرها الدكتور منجانا ، فهو من أشهر المترجمين الذين نقلوا المؤلفات اليونانية العلمية إلى السريانية ، وقد ذكره ابن النديم في كتابه « الفهرست » ، وعرفه العرب بالأخص من تراجمه للكتب اليونانية الطبية ؛ وقد انتفع حنين بن اسحاق بترجمة الرهاوي لمؤلفات جالينوس ، وترجم الرهاوي أيضاً بعض مؤلفات أرسطو ، وألف رسالة دينية عنوانها « كتاب الاعان » . وقد ولد هذا العلامة في مدينة إذيسا أو (الرها) حوالي سنة ٧٦٠ م وتوفي حوالي سنة ٨٤٠ ولا شك أن المجلد الأول الذي أصدره الدكتور منجانا من النصوص السريانية التي اتخذت واسطة لنقل العلوم اليونانية إلى العربية سيكون له شأن يذكر في درس الحركة العلمية الاسلامية في بغداد في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع أعني في أزهر عصور الدولة العباسية

لجنة الفتاوى في الأزهر والمعاهد الدينية

رأى فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر أن رسائل الاستفتاء عن مختلف المسائل الفقهية تنثال كل يوم على الرياسة الدينية من مصر ومن جميع الأقطار الاسلامية فأراد أن يجعل لهذا التثقيف المثمر جهة خاصة تتولى الفتوى على هذه الأسئلة وترجمتها إلى لغة المستفتي ثم عرضها على الرياسة العليا . فأصدر قراراً بتأليف لجنة تسمى « لجنة الفتاوى في الأزهر والمعاهد الدينية » وأسند رياستها إلى العالم الجليل الأستاذ حسين والي عضو هيئة كبار العلماء ، وعضو مجمع اللغة العربية الملكي . وجعل أعضاءها أحد عشر عضواً يمثلون المذاهب الأربعة المشهورة ، وسيكون دستورها في الفتوى أن تجيب الطالب على المذهب أو المذاهب التي يريد الاجابة على مقتضاها . فاذا لم يعين المستفتي مذهبا أجابته بحكم الله المؤيد بالأدلة من غير تقيد بمذهب من المذاهب الشرعية

العارية الدولية للكتب

اجتمع في شهر مايو الماضي المؤتمر الدولي الثاني للمكتبات وفنونها بمدريد واشبيلية وسلمنكا وبرشلونه ، وكان الغرض من اجتماعه إيجاد اتحاد أدبي بين الدول لنشر العلوم والثقافة بالتعاون بين مكتبات العالم . وكان من أهم ما نظر فيه مسألة « العارية الدولية للكتب » فاتخذ فيها قراراً ننقل خلاصته عن تقرير المندوب المصري فيما يلي :

١ ـ أن تكون المعاملة بين الدول في مسألة العارية الدولية للكتب على قاعدة المثل في أوسع معانيها

٢ ـ أن تتعهد المكتبة المستعيرة بضمان كل ما ينشأ من ضياع أو تلف للكتب التي ترسل إليها

٣ ـ أن تتعهد المكتبة المستعيرة بأن تتحمل كل نفقات الارسال والتأمين

٤ ـ أن تنفذ عملية الاستعارة بأسهل الطرق وأسرعها وبأقل النفقات الممكنة

٥ ـ أن تكون الاستعارة بين الدول بطريقة مباشرة

٦ ـ يجب على كل مكتبة قبل أن تطلب مؤلفات من الخارج أن تتأكد من عدم وجود هذه المؤلفات في بلادها

٧ ـ يحسن أن يعين في كل مكتبة موظف خاص باستعارة الكتب وهو الذي يرسل ويتسلم الكتب المطلوب استعارتها

٨ ـ وعلى المكاتب المنضمة إلى الاتحاد أن تعمل إحصائية عن الكتب التي أعارتها أو استعارتها كل عام

الانكليز واللغات الأجنبية

المعروف عن الانكليز أنهم أقل الشعوب الأوربية ميلا إلى تعلم اللغات الأجنبية ، وقد يرجع ذلك من وجوه كثيرة إلى انتشار لغتهم في كثير من البلاد والأمم التي يبسطون عليها سيادتهم أونفوذهم ؛ ولكن الواقع أن الانكليزي يرغب بطبيعته عن بذل أي جهد لتعلم لغة أخرى ؛ بيد أنه لوحظ منذ بداية هذا القرن أن الشباب الانكليزي قد أخذ يميل نوعاً إلى تعلم لغة أجنبية ، وأنه يؤثر الفرنسية في ذلك على كل لغة أخرى ، وتليها اللغة الألمانية ؛ وقد أذاع أحد كبار الأساتذة الفرنسيين الذين يتولون التدريس في جامعة لندن أخيراً تقريراً عن تقدم اللغة الفرنسية في انكلترا وفيه يقول إنها أصبحت اللغة الأجنبية الوحيدة التي تدرس في المدارس الابتدائية الممتازة في انكلترا وعددها نحو خمسمائة مدرسة ؛ وأنه يوجد زهاء خمسين ألفاً من الشبان الانكليز يتعلمون الفرنسية في المدارس الليلية ، وعشرين ألفاً يتعلمون الألمانية ، وتسعة آلاف يتعلمون الأسبانية . ويطلب تعلم الفرنسية في المدارس الابتدائية الحرة وفي المدارس الثانوية . ويختار الفرنسية كلغة أجنبية إضافية نحو تسعين في المائة من تلاميذ هذه المدارس . غير أنه يلاحظ من جهة أخرى أن الطلبة بعد تعلم الفرنسية في المدارس لايجرؤون على التكلم بها بعد تخرجهم ، لأنهم يجدون صعوبة كبيرة في التحدث بها سواء من جهة النطق أو النحو ؛ ويلاحظ من جهة أخرى أنهم لا يقرأون بها سوى القليل من الكتب والنشرات السخيفة . وإلى جانب ذلك يتقدم تعلم اللغة الألمانية خصوصاً في الأقسام العلمية بالجامعات

جائزة نوبل للسلام

من المعروف أن معهد نوبل يخصص جائزة سنوية للسلام يمنحها للشخص أو الأشخاص الذين يقدمون أعظم خدمات لقضية السلام العالمي . وقد منحت هذه الجائزة في العام الماضي للمستر آرثور هندرسون الوزير الانكليزي السابق ورئيس مؤتمر نزع السلاح ، والسير نورمان آنجل الكاتب الانكليزي الذي اشتهر بمقالاته وكتبه لتأييد قضية السلام . وفي أنباء (أوسلو) الأخيرة أنهم يرشحون لنيل جائزة السلام عن سنة ١٩٣٥ ، السيو مازاريك رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا ، والهير كارل فون اسيوتسكي . والأول معروف بحبه وخدماته للسلام ، وأما الثاني فهو كاتب ألماني ذو نزعة ديموقراطية ، كان يحرر صحيفة « دي ڤلت بينه » (المسرح العالمي) ، وقد اشتهر بحملاته على الجمعيات الوطنية النازية السرية . فلما تولى النازي الحكم في يناير سنة ١٩٣٣ ، قبض عليه وأودع في معسكر الاعتقال . ولا يزال معتقلاً حتى اليوم

مشروع أدبي ضخم

وضع أحد كبار الناشرين في السويد مشروع مباراة أدبية ضخمة ، خلاصتها أن يتقدم اثنا عشر ناشراً يمثلون كبرى الدول الأوربية ، ويقدم كل ناشر منهم أنفس ما لديه من مخطوطات كبار المؤلفين المعدة للنشر إلى لجنة من المحكمين من أكابر المفكرين ؛ وتنتخب كل لجنة مما يقدم إليها أنفس وأجمل رواية ؛ ثم ترسل الروايات الاثنتا عشرة المختارة إلى السويد وتعرض هنالك على لجنة عليا من المحكمين ، وهذه تختار أنفس وأجمل رواية من الجميع ؛ ويمنح مؤلف هذه القصة المختارة مكافأة مالية قدرها ثلثمائة ألف فرنك (نحو أربعة آلاف جنيه) . ثم تترجم إلى معظم اللغات الحية وتنشر في مختلف بلاد العالم ؛ ويقدر واضع المشروع أنه يمكن أن يجتني من تنفيذه نحو مليون فرنك . بيد أن المهم في ذلك كله هو ما يصيب المؤلف الذي يسعده الحظ بأن تفوز قصته بالجائزة الكبرى ، فهو يغدو بالحصول عليها من أصحاب الثراء؟



روض الشقيق فى الجزل الرقيق

ديوان المرحوم الأمير نسيب أرسلان

١٢٨٤ — ١٣٤٦ ﻫ

للأستاذ محمد بك كرد على

بيت الأمراء أرسلان فى لبنان عريق فى النسب والأدب ، وأشهرهم فى هذا العصر الأمير شكيب أرسلان أحد من انبغتهم الشام من أرباب الأقلام ، ويليه فى الشهرة الأدبية شقيقاه الأمير عادل والأمير نسيب صاحب هـذا الديوان . طبعه فى دمشق شقيقه الأمير شكيب وقدم له مقدمة التزم فيها السجع على عادة أهل القرن الماضى ، وعلق عليـه حواشى وأردفه بترجمة الناظم ونسب العائلة الأرسلانية التى تنتسب إلى الأمير عون المتوفى سنة ١٣ ﻫ . وكان قد حضر وقعة أجنادين ، حضر مع خالد بن الوليد من العراق إلى الشام لنجدة أبى عبيدة بن الجراح ، وحضر الأمير مسعود المتوفى سنة ٤٥ ﻫ وقعة اليرموك بألف وخمسمائة من أصحابه ، وشهد وقعة قِنَّسرين . وأرومة هذا البيت ترتقى بعد ذلك إلى المنذر بن الملك النعمان الشهير بأبى قابوس ممدوح النابغة الذبيانى . وقد فصل الأمير شكيب كل ذلك تفصيلاً وافياً استغرق أكثر من نصف هذا الديوان ، وهو فى ٢٧٠ صفحة متوسطة القطع ، وترجم لمن ورد ذكرهم من القضاة والعدول وغيرهم ممن شهدوا لهذا النسب ، وردّ على بعض المؤرخين الذين أغفلوا لمقاصد حزبية ذكر آل أرسلان فى بعض المواضع والمواقع ، وقديماً قالوا : الناس مصدّقون بأنسابهم

سمى الأمير أرسلان ديوان أخيه روض الشقيق ، فى الجزْل الرقيق ، وذلك لجمعه بين متانة التركيب ، ورقة الشعور ؛ وفى لفظة الشقيق من التورية مالا يخفى . وقد أشار إلى أصحاب الأدب الجديد ، وهو من أنصار الأدب القديم بقوله : « لا ينبغى لناشئة العرب أن يعدلوا بهذه الأم العربية البرة أماً ، ولا يجوز أن يجعلوا لها من بين اللغات نِداً ، بل يجب أن يجعلوها قطب رحى المثاقفة ، ويعلموا أنها نعم السند يوم المماتنة . فلا يرتبوا أفكارهم فى لغة قبلها ، ولا يضلوا فى الأبانة عن ذات نفوسهم سبلها ، حتى إذا صفت لهم مشارعها ، وحنَت عليهم أجارعها ، وصارت مَلَكتها جارية مجرى المهج من نفوسهم ، نازلة منزلة الأدمغة من رءوسهم ، كان لهم أن يستزيدوا من آداب الغرب والشرق ما شاءوا وتطالت إليه عزائمهم ، وأن يضموا إلى التلاد العربى القديم طريف البضائع ، وأن يضيفوا إلى الارث المُدمَلى Archaïque الكريم حديث البدائع ، مشروطاً فى نقلها إلى خزانة العربية ، لأجل تمام القصد واجتناب الهجنة ، أن يكون الأسلوب العربى الأصيل ظلها وماءها ، وديباجة النطق بالضاد أرضها وسماءها ، وأن تكون لغة الكتاب المنزل على أفصح العرب ألفها وياءها .. »

وها كم نموذجاً من شعر هذا الأمير الشاعر من قصيدة يصف الفقير فى ضنكه ويحث الموسر على إعانته ، » وهى قصيدة فذة فى بابها فى وصف الفقر وشدته على المرء واستجلاب الرحمة والتحنان على الفقراء والتحذير من مغبة إرهاقهم » :

رأيت سليل الفقر يعمل فى الثرى ... منكباً على عمرانه يتلهف
يخدُّ أديم الأرض خداً كأنه ... له قِبَل الغبراء ثار مخاف
كأنى به نادته للحرب فاغتدى ... يكرُّ عليها بالحديد ويعطف
كأنى به إذ فرق الترب والحصى ... يفتش هل فى باطن الأرض منصف
كأنى به إذ خط فى الأرض قبره ... يهمُّ على جثمانه ثم يصدف
به آية الجهد الذى ليس ناهضاً ... به بشر غض البنان مهفهف
جبين عرفضّ الصبيب مضمَّخ ... وشعر ملتصّ الغبار مغلف
وجيد خفوق الأخدعين كأنما ... تبينت من أوداجه الدم ينطف
رثيت لمكروب سحابة يومه ... إذا قرّ منه معطف ماج معطف
إذا زلزلته سرعة الخطو أوشكت ... أضالعه فى زوره تتقصف
كأن أزيز الجوف عند وجيبه ... حسيسُ هشيم والندى يتوكف
يشقق عنه الثوب فالريح قد غدت ... تصافح منه جلده حين تعصف

وأثبت حَمْىُ الشمس في أم رأسه   نبالاً فراس العظم منها منقف
تبطن منثور الغبار جفونه   فضرّج منها مقلة تتحصف
كأن حماة الشوك في ذيل برده   طراز حواه العبقري المفوّف
عدٌ إلى الجبار كفاً تكدحت   أناملها والله بالعبد أرأف

ومنها :

وصفت لك الضراء يا صاحب الغنى   وهل تعرف الضراء من حيث توصف
عن الفقر ما أدراك ما الفقر إنما   لهات للردى منه أخف وألطف
حياة بلا أنس وعيش بلا رضى   فلا الرغد ميسور ولا العمر يترف
بكيتك يا خلوّ اليدين بأدمعي   فأنت صريع النائبات المذفف
روح كثير المال يسحب ذيله   وأنت المعنّى يا فقير المكلف
ألست الذي شاد الحصون بعزمه   وناط نجاد السيف للحرب يزحف
وأجرى سفين البحر في اللج ينثني   ومشّى قطار النار في البيد يهذف
وقد ملأ الأنبار للخلق ميرةً   وحاك لهم موشـيـة تتنصف
بلى إنّ من هان المسير بكده   على الأرض مفتول الشوى متقشف
أخو فاقة لم يدخل الطيب رأسه   ولامسٌ كفيه القضيب المثقف
أفي الحق أن يشقى الفقير بعيشه   وذو المال في شر الغواية يسرف
وأن يدنف المثرى بأعقاب بطنه   غداة خفيف الحاذ بالجوع يدنف
أما في كبود العالمين هوادةٌ   ولا رحمة عند الشدائد تعطف
وهل فقدت بين الأنام قرابة   يحثّ بها منهم عديم ومترف
أرى المرء لا يأسو جراحة مملق   ولو هزّ فوديه النصيح المعنف
أراه إذا ما نعّم الرغد جسمه   غدا قلبه يقسو لديه ويصلف
إليكم بني غبراء تدمى عيونهم   وليس لهم إلا المياسير مسعف
يمدون نحو المحسنين أكفهم   وما يستوي للكفّ والمتكفف
سألت عزيز المال حين يفوتهم   من الرمل يحثوا أم من البحر تغرف
ألا إنما الحسنى إليهم فريضةٌ   وفي ذلك الآيات لا تتحرف
فإن طلبوا الإنصاف قبل سماحة   ومن لك بالمظلوم لا يتنصف
عليكم بكشف الضر عنهم فإنما   أخو الضر عسى ضاريا حين يهجف
فلا ترهقوهم بالشقاوة والطوى   فيبدو منهم بادر لا يكفكف
فإن لم ينالوا بالهوادة حقهم   ينالوه يوماً والصوارم ترعف
ولا تهملوا حسن الخطاب ولينه   فإن الخطاب العذب تتم الثقف
لكم عبرة في الغرب من كل فتنة   تهز الجبال الراسيات وتخسف
فلو كان عيش للمفاليس طيب   لما قام منهم قائم متطرف

وفي الديوان كثائر الدواوين الشعرية أماديح وقصائد في التهنئات ، ومقاطيع في الغزل والنسيب ، وكلها من الشعر الجزل . رحم الله ناظم عقودها وأمد في حياة ناشرها

إلى صديقي العلامة الأمير شكيب أرسلان

نعم شق عليّ يا أخي أن تلقي دلوك في الدلاء ، وأن تكتب مقدمة كتاب « قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث » بهذا اللسان الذي ما عهده فيك من تأدبوا بأدبك ، وأكبروا عظمة بيانك . بالأمس كتبت مقدمة « النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي » للأستاذ محمد أحمد الغمراوي ، فمن منا لم يعجب بما كتبت وحبرت ، وإن كنت أطلت وتوسعت ؟ واليوم تكتب ما تكتب لقواعد التحديث ، في فن لست منه ولا أنا في العير ولا في النفير ، وجئت تغالي بكتاب ليس فيه من حديثه ولا أسلوبه أسلوب المؤلفين ، ولا يستحق هذه العناية والدعاية وهذه الضجة ؛ ولكل رأيه واجتهاده

أنا أجلك عن الدخول في هذه المآزق ، لأنك في غنية عنها ، ولست بحمد الله محتاجاً إلى مصانعة الناس ، ولا نعتبت أمامك الموضوعات ، تحتاج لمعالجتها لتورثك شهرة وحسن ذكر ؛ وما إخالك إلا كتبت ما طلب منك في غير وقت نشاطك ، وليس لك من القول ما تقول فتبدع على عادتك . ومهما كانت منزلة الكتاب وكاتبه من نفسك ، ما أرى لقلمك أن يجرى إلا فيما يصلح أن ينسب إلى إحسانه ؛ وحملة الأقلام مسؤولون إذا اقتصروا مع المؤلفين والطابعين على مقارضة الثناء ، ولم يتعاودوهم بالنقد الصحيح ؛ والإفراط في التقريظ شيمة المتأخرين من أهل عصور الانحطاط الأدبي في العرب ؛ والنقد المفيد عادة نقاد الأفرنج في زماننا . ومن الأمانة للعلم والأدب أن يُدلّ كل كاتب على مواضع الخطل من كلامه ، إلا أن نغشه ونغش قراءه ، فنجسم ما صغر حجمه في العيان ، ولا يشول مهما نفخناه في الميزان

وأكتفي الآن بجملة من مقدمتك ، وقد بدأتها بقولك : (لا يخفى على أهل الأدب ، أن الجمالَ والقسام في العربي (؟) واحد ، وأن معنى القاسم هو الجميل ، فلا يوجد إذن لتأدية هذا المعنى أحسن من قولنا « الجمال القاسمي » الذي جاء اسما على مسمى ، مع العلم بأن الجمال الحقيقي هو الجمال المعنوي ، لا الجمال الصوري ، الذي هو جمال زائل ؛ فالجمال المعنوي هو الذي ورد به الحديث الشريف : إن الله جميل ويحب الجمال . وعلى هذا يمكنني أن أقول إنه لم يعط أحد شطر الجمال المعنوي الذي يحبه الله تعالى ، ويشغف به عباد الله تعالى ، بدرجة المرحوم الشيخ جمال الدين القاسمي الدمشقي ، الذي كان في هذه الحقبة الأخيرة

جمال دمشق ، وجمال القطر الشامي بأسره ، في غزارة فضله ، وسعة علمه ، وشفوف حسه ، وزكاء نفسه ، وكرم أخلاقه ، وشرف منازعه ، وجمعه بين الشمائل الباهية ، والمعارف المتناهية ، بحيث أن كل من كان يدخل دمشق ، ويتعرف إلى ذلك الحبر الفاضل ، والجهبذ الكامل ، كان يرى أنه لم يكن فيها إلا تلك الذات البهية ، المتحلية بتلك الشمائل السرية ، والعلوم العبقرية ؛ لكان ذلك كافياً في اظهار مزيتها على سائر البلاد ، واثبات أن أحاديث مجدها موصولة الاسناد . . . الخ)

بأبي أنت وأمي يا شكيب ! هل هذا بيانك الذي عرفته وعرفه فيك قومك ؟ أنا لا أطلب غير حكمك ، فلا أحتكم إلا إليك . أهذا كلام ترضاه لنفسك في كتاب يبقى ؟ وما هذا القلق في المعاني والمباني ؟ ربما اغتفر صدور مثل هذا الصدر من فتى يشدو في الأدب ، ولكن من شيخ كتاب العرب لا ثم لا !

وحديث السجع أنت عرفت رأيي فيه ، ولعلك تذكر أني كنت لفت نظرك إلى ما أعييت به من كتاب رحلتك إلى الحجاز : « الارتسامات اللطاف ، في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف » وقلت لك يومئذ إن القارئ مهما بلغ من تقوب ذهنه لا يدرك لأول وهلة معنى هذا العنوان المسجوع ، إلا بكثير من إجهاد الفكر ؛ وهكذا كدت باستحسانك السجع في بعض المقامات والتلوق في تقريظ من ترى تقريظه ، أن تنسينا حسناتك علينا في كلامك المرسل الكثير ، وأنا على ما تعلم من أحرص الناس على تخليده وتأبيده

بحقك ، هل رأيت لأحد من بلغاء القرون الأولى سجعاً في شيء من أسماء كتبهم ؟ وهذا الجاحظ وابن المقفع ، وهذه أسماء كتبهما ورسائلهما ، هل وجدت لهما سجعاً تتقزز منه كصاحبك أبي إسحاق الصابي الذي أفسد اللغة على علو مكانته في الأدب بما سجع ورصع ؟ وأظنك موافقي على رأيي في أن التسجيع أضعف ملكات المؤلفين من عهد ابن العميد إلى زمن أستاذنا الامام الشيخ محمد عبده الذي قضى بقوة حكومته على استعمال السجع في الصحف والرسائل الرسمية ، فعدّ عمله هذا أكبر حسنة من حسناته ؛ ولولا عمله ما دخلت اللغة في هذا الأسلوب الممتع الذي تقرؤه اليوم للمنشئين والمؤلفين ؛ ونرجو أن تعود به اللغة إلى رونقها السالف من الرشاقة والجزالة ، على نحو ما كانت على عهد سهل بن هرون والجاحظ وعمرو بن مسعدة وأحمد بن يوسف الكاتب وابن المقفع وأضرابهم . وما أظنك تنكر عليّ أن وصف أبي حيان التوحيدي في القرن الرابع ، وابن خلدون في القرن التاسع ، أرفع وأمتع من تعسف الصابي والصاحب بن عباد وأبي بكر الخوارزمي والقاضي الفاضل والعماد الكاتب وابن الأثير إلى آخر أعيان ذاك المذهب المتكلف . وأظنك موافقي أن في قولك : « وإن كان يجب حذفه (السجع) من هذه اللغة من أجل كونه في طريقة قديمة ، ومن أجل أنه عبارة عن زينة كلامية ، فان هذا يؤدي بنا إلى اقتراح حذف الشعر أيضاً » — إن في قولك هذا مغالطة لطيفة ، وفي علمك أكرمك الله أن النثر غير الشعر ، والكراهة آتية من التزيد والتكلف

لو كنت على مقربة منك ما تركتك تقول في مقدمة الديوان الذي نشرته بأخرة ودعوته : « روض الشقيق ، في الجزل الرقيق » ما قلته في فاتحته : « . . . الذي لا أجد لشعره وصفاً أوفى من عرضه على الأنظار ، ولا لديوانه حلية أجل من نشره في الأقطار ؛ وخير وصف الحسناء جلاؤها ؛ والجواد عينه تغني عن الفرار . ولعمري لو وصفته بأزهار الربيع ، وأنواع البديع ، وشققت في تحليته أصناف الأساجيع ، وكان هو في الواقع دون ما أصف لما أغنيته فتيلاً ، ولا رفعته عن درجته كثيراً ولا قليلاً ؛ كما أني لو قدمته للقراء فريدة معطالاً ، لا يرن له حجل ولا سوار ، ولا يتلألأ عليه ياقوت ولا نضار ، وكان هو في نفسه دراً نظيماً ، وأمراً عظيما ، وديواناً تتأرج أرجاؤه نداً ولطيما ، لما خفي أمره على ذوي الوجدان ، ولا تمارى عن سبقه أحد ممن له عينان . . » ولو كنت مكانك لقلت وما باليت : « . . . الذي لا أجد لشعره وصفاً أوفى من عرضه على الأنظار ؛ ولو وصفته بأزهار الربيع ، وكان هو في الواقع دون ما أصف لما أغنيته فتيلاً ؛ ولو قدمته للقراء فريدة معطالاً ، وكان هو في نفسه دراً نظيما ، لما خفي أمره . . »

أليس هذا الايجاز أوقع في النفس ، وأجل في أداء المعنى ، وأدعى إلى الأفهام من أسجاع تثقل على الطباع ؟ ونحن إنما نكتب لنُفهم ، لا لنُعجم ونُبهم . وبعد فالنا وللتقيد بما قاله بعض المتأخرين في معنى التعلق بأهداب السجع ، ولدينا في أقوال المتقدمين والمأثور من كتاباتهم ما يحملنا على تقليدهم في أساليبهم ، يوم لا هذا الترصيع والتسجيع ، ولا ذاك الضرب المتكلَّف من أنواع البديع

محمد كرد علي